رُشحت لجائزة بوك سبوت للأدب الرفيعة

Telegram:@mbooks90

فيرونا تهبط من التل

ديمتري فيرهولست

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيرونا تهبط من التل

تأليف: ديميتري فيرهولست

ترجمها عن الإنجليزية: محمد عثمان خليفة

تحرير: سهيلة دويدار

مُراجعةٌ لُغوية: سوسنة سيد

طبعة 2024

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 016180/2023

الترقيم الدولي:9789773198763

© جميع الحقوق محفوظة للنَّاشر

60 شارع قصر العيني – 11451 – القاهرة - مصر

ت:27921943 (202+) – 27954529 (202+)، فـ:27947566 (202+)

www.alarabipublishing.com.eg

Mevrouw Verona daalt de heuvel af © 2006 by Dimitri Verhulst

Originally published by Uitgeverij Atlas Contact, Amsterdam

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

ديميتري فيرهولست

فيرونا تهبط من التل

روايةٌ مِنْ بلجيكا

ترجمة: محمد عثمان خليفة

العربي
للنشر والتوزيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"كلبي عجوز تلتمع عيناه بنظرة توسل عندما يتألم.

أنا ربه. وهو لا يعلم أن وراء هذا الرب المخلص، الذي يتوسل إليه،

ربًا آخر لا يراه.

فهل هناك ربٌ آخر وراء ربنا؟

الكلب يتذلل عند قدمي. فعند أي قدمين ينبغي لنا أن نتذلل؟"

"جان راي"، كاتب بلجيكي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الفصل الأول

في مكان ما.. في نبع من ينابيع الحكايات، التي تفرقت وانتشرت هنا وهناك، حتى ينهل منها من ينهل، كلما احتاج العالم إلى سماع حكاية، حتمًا ستجد حكايةً تخبرك أن الإنسان عندما يصل إلى عالم الأموات، يحاول استحضار تلك الخصال التي ميزت الحياة التي عاشها. وهذا لأننا نرغب كل الرغبة في أن يكون عالم ما بعد الموت مكانًا جميلًا. تلك أهم سمة من سمات حكايات مثل هذه، وعليك أن تكون ساذجًا للغاية حتى تصدّق أن الإقامة الأبدية في مكان واحد مع كل من مات ويموت وسيموت، هي إقامة أبدية ممتعة. تروي لنا حكايتنا هذه إن الأرواح الهائمة تجتمع وفق خصال مشتركة، ومنها نخلص إلى أن الزحام حتمًا شديد في تلك البقاع من عالم الآخرة، حيث الأشخاص الذين كابدوا طيلة حياتهم لجمع الثروات، أو امتلكوا المعرفة واحتكروها، أو ذاك الذي أصبح عازف جيتار مشهورًا، أو هؤلاء الذين اكتسبوا الشهرة في أي تخصص، أو ربما تزدحم البقعة حيث أولئك الذين يزيد احترامهم لذاتهم كلما زاد عدد مغامراتهم العاطفية.

Telegram:@mbooks90

والحق أن أي حكاية من حكايات عالم ما بعد الموت هي حكاية حياة، ولذلك تجد أنه حتى أشد الناس إلحاذا يجد قدرًا كبيرًا من المتعة عند اعتبار تلك الحياة حالة افتراضية. ولسوف أضرب لك الآن مثلًا.. ففي ذلك اليوم قارس البرودة في أواخر فبراير، فكرت "مدام فيرونا" فيما ستعترف به قريبًا أمام حارس الخلود الأسطوري

عندما يسألها عن السمة الرئيسة لحياتها التي تنسل منها وتبتعد الآن عنها. ولم تكن الصعوبة في التفكير فيما ستقوله له؛ فهي متيقنة من نتيجة كلامها، ولكن الصعوبة تتمثل في الطريقة التي سوف تقول بها ذاك الكلام.

***

أما السمة المميزة التي سوف تلخُص بها حياةً ناهزت اثنين وثمانين عامًا؛ فهي أن الكلاب أحبت صحبتها. ولا بد أن للأمر علاقةً بشيء ما فيها، فحتى في طفولتها المبكرة، كانت الكلاب تشعر بالأمان بقربها. وعندما كانت بنتًا، اعتادت الكلاب أن تقترب منها وتتوسلها لتربّت عليها، بل وترفع قوائمها لتصافحها بالطريقة التي تعلمتها من أشخاص سخيفين. وحتى سلالات الكلاب الأشد ذكاءً والمعروفة بعدم ثقتها في الصغار، كانت تشتعل بهجةً بالقرب منها، وكلاب الحراسة التي تدربت على الشراسة مع كل غريب تخلت عن ذلك الطبع في وجودها. وفي الصيف، عندما يتخلى مسافر عن كلبه ويتركه على جانب الطريق، كانت تصادف عديدًا من الكلاب الجائعة، ولم تكن لتتردد في أن تأخذها جميعًا إلى المنزل، لولا وجود أم تصرخ بأعلى صوتها رافضةً مجرد التفكير في اقتناء كلب. والشيء الوحيد الذي سمحت والدتها لها بأن تربيه كان خنزيرًا غينيًا صغيرًا، وإن كانت والدتها لتصاب بنوبة قلبية في حال هرب ذاك المخلوق من قفصه. وبطبيعة الحال، فإن أمًا مثلها لم تكن لتتعاطف مع حزن طفلة تحفر حفرة في الحديقة الخلفية لمنزلها حتى تضع فيها صندوق حذاء أو صندوق السيجار الذي وضعت فيه حيوانها الصغير الأليف بعد موته، لتودعه في مستقره الأخير بعد طقوس لا يدركها إلا الصغار.

لم تزَ "مدام فيرونا" منزل أبويها منذ اليوم الذي أُنزل فيه جثمان والدتها إلى قلب الأرض الرحيمة نفسها، وبعد ذلك بيع المنزل لأشخاص لم يبدوا أي اهتمام بالتاريخ السابق لمسكنهم الجديد. ولكنها إن كانت قد استسلمت ذات مرة للحنين ولاستنشاق أجواء سنوات الصغر، لتجولت في الحديقة التي تعلم أن بها عديدًا من مقابر الحيوانات الصغيرة. من المستبعد تمامًا أن تجد أي بقايا لتلك الجثث التي لا تُعد ولا تُحصى لحيوانات نفقت أو طيور فاضت روحها بعد أن ارتطمت بزجاج نافذة، ولكنها

قادرة بقليل من الجهد أن تتذكر نوع كل حيوان ومكان دفنه تحت الشجيرات. بل أقول لك إنها كانت قادرة على تذكر الأسماء التي أطلقتها عليها؛ "ميمي".. "كادلز".. "فلافي".. "سكيتلز".. "بيل".. "دوللي"، أو أيًا من الأسماء التي تطلقها بنتٌ في ربيعها الثالث عشر على حيوانها الأليف ومن ثم سرعان ما تشعر بالحرج من ذلك الاسم.

ومع ذلك، وما دمنا نتحدث عن "مدام فيرونا"، فيجب أن نفرّق بين الحب العادي نسبيًا للحيوانات وتلك القدرة التي تمتعت بها طوال حياتها فيما يتعلق بالكلاب. رغم أني أشك في صحة استخدام كلمة "تمتعت" في هذا السياق. فبعد أن أحضرت معها بعناد كلبًا ضالًا آخر مثيرًا للشفقة إلى المنزل (ها أنا أخطئ مرة أخرى: فهي لم تحضره، بل تبعها الكلب ببساطة)، تحملت نوبة هيستيرية من والدتها قبل أن تسلِّم الكلب إلى الملجأ، مدركةً أن سجنه هناك هو ضريبة حصوله على طعام، وتمنت أن يتبناه أصحاب أكثر حكمة من أمها. وهذه العبارة الأخيرة من باب المجاز، حيث إنك تعرف وأنا أعرف أن لا جدوى على الإطلاق من شراء كلب أو تبنيه لمجرد أن يسميك الناس صاحبه؛ فالكلب هو من يختار صاحبه دائمًا، حتى لو اضطره ذلك إلى الانتظار بصبر تحت المطر حتى تصدأ سلسلته، ويقضي الأيام الطويلة هائمًا على وجهه.

ومن الصعب تحديد متى أدركت "مدام فيرونا" امتلاكها تلك الجاذبية غير الطبيعية للكلاب، لكنها كانت في العشرين من عمرها تقريبًا عندما سافرت وحدها لأول مرة وتأكدت من أن قدرتها هذه فعالة كذلك في أراضي البلدان الأجنبية. وبالطبع، فإن قدرتها على كسب محبة الكلاب كانت محل استحسان واستغراب مَن صادفها، حتى لو كان في الأمر بعض المشاكل أحيانًا.

ذات مرة، وجدت نفسها فجأة مع كلب راعٍ، ترك القطيع وراعيه ورافقها طوال الطريق الذي مشت فيه لمسافات طويلة عبر البرتغال. لم يطلب منها الكلب شيئًا، بل تبعها ببساطة، أيامًا متتالية، عبر التلال الخلابة حول "كويمبرا" وفوقها. وفي الليل، تحت النجوم، يقبع مستكينًا بجوار خيمتها، وفي الصباح يرافقها وحسب، بعد أن يتمطع ليطرد عنه كسل الليل ويتثاءب باتساع فمه لتتبدى أسنانه الصفراء المتعفنة. لم يطلب منها أبدًا أي طعام. وهي لم تعطِه أي شيء أيضًا، على أمل أن يعود من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيث أتى. كانت برك المياه الصغيرة هي كل ما يحتاجه، ولحسن حظه فقد كان هناك كثيرٌ منها. وأخيرًا، بعد أسبوعين وأميال عديدة، وعلى مرمى حجر من مطار "بورتو"، وقد أدرك أنها لا تستطيع اصطحابه معها إلى بلادها، رفضت صحبته بإصبع تحذره به والتظاهر بغضب لم يكن ليقنعه أبدًا. وعندئذ، وللمرة الأولى، أسمعها نباحه، فتأثرت بذلك الصوت. كان صوتًا واهنًا يابسًا متهالكًا، لن يقوى على إخافة أي خروف بعد الآن. ثم استدار وابتعد، على أمل أن تكشف له وجهته الجديدة عن نفسها.

***

عندما تحولت أفكار "مدام فيرونا" إلى حكاية في ذلك اليوم البارد من فبراير، كان هناك كلب آخر يرقد عند قدميها، وهو نوع من كلاب المزارع التي أثارت سخط رسامي عصر النهضة بسبب الطريقة التي كشفت بها التدرجات اللونية الدقيقة في فرائها عن لا محدودية الخالق ومحدودية المبدع، وهو كذلك من النوع الذي تراجع تكاثره في زمن ما بمنتصف القرن التاسع عشر. إنه حيوان رائع يتمتع بصفات قيادية، وهو في غاية اللطف طوال الوقت، ولكنه سرعان ما يمل الأشياء. ترددت قبل السماح له بالدخول، خاصة وهي في هذا العمر، ولكنها لم تكن لترفض طلب تلك العيون الخاضعة الحزينة التي حدّقت فيها:

- حسنًا.. تعال.. يمكنك العيش هنا.. لكن من الأفضل أن تدرك أنك ستبقى حيًا بعد أن أموت قريبًا.. فلا تتعلق بي كثيرًا.

تقترب الساعة التي سيضطر فيها الكلب للبحث عن سيد جديد، لذا كان حدسه المعروف عن الكلاب يثير قلقه من دون شك. ولكنه شاء ألا يظهر لـ"مدام فيرونا" هذا القلق، واستلقى عند قدميها الباردتين.

- هذا ما سأقول عندما أصعد إلى هناك.. إنني كنت دائمًا محبوبةً من الكلاب.

وخطر لها أن زوجها المحبوب، "مسيو بوتر"، الذي سبقها إلى عالم الحكايات، ربما أخبر الحارس بالأمر نفسه. هو أيضًا كان محبوبًا بين الكلاب. فما الذي يمكن أن يكون أكثر منطقية من لم شمل "مدام فيرونا" و"مسيو بوتر" في ذلك البرزخ المرعب الذي

يسمونه عالم الآخرة؟ إن في وجودهما في بقعتين مختلفتين من الآخرة سخرية قاسية من فكرة الجمال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

لو أننا أحضرنا خريطة طبوغرافية وحاولنا تصور منحدرات قرية "آوسفيني"، فإن الخطوط العريضة ستذكّر قارئ الخرائط المبتدئ بمسار ما، في حين أن الكشاف المخضرم سوف يراها أشبه قمع في قشرة الأرض، صنعه مجرى نهر في صبر شديد. ونظرًا لأن هذا هو ما تفعله الأنهار، حيث تقطع الأرض إلى قطع أصغر عبر مليارات السنين. وهكذا.. قرب نهر ومعرفة محدودة بالكتاب المقدس ورخصة شعرية محدودة.. كان كل ما يحتاجه بناة الكنيسة القدامى لتكريس الكنيسة الصغيرة في الوادي لـ"يوحنا المعمدان" متوافرًا. ولكن قوة الإيمان لم تتغلب أبدًا على القوة العضلية المطلوبة لتسلق أحد التلال الثلاثة في طريق العودة إلى المنزل بعد القداس. وفي أيام الذروة، التي يحددها جفاف الطقس والدروب الخالية من الأمطار، يرفع رئيس الأبرشية كأسه الممتلئ بـ"البوجوليه" المكرّس أمام ست عجائز بسمانات أرجل قوية وعلى الأكثر أثناء دق الأجراس الذي كان على المصلين أن يتخيلوه في اللحظات المناسبة، بسبب نقص في خُدّام المذبح.

ويصعب علينا تتبع أصل الاعتقاد الخاطئ بأن الناس في المجتمعات الزراعية الصغيرة أكثر تدينًا من أقرانهم في الحضر، ولكن من المحتمل أن عقودًا من انتشار نسخ لوحة "الملاك" لـ"جان فرانسوا ميليه" لعبت دورًا لا ينبغي الاستهانة به في

ترسيخ هذه الفكرة. ففي "آوسفيني"، على الأقل، كان من النادر أن ترى مرتادي الكنيسة، ما لم يجر دق الأجراس في البرج لنشر خبر عن حفل زفاف أو جنازة في أنحاء الوادي. فلا يحضر القداس سوى ستة مؤمنين مترددين على الكنيسة باستمرار؛ كان من الممكن أن يكونوا سبعة لو لم نستبعد شخصًا مثل "جان بول"، الذي كان يغمس أصابعه المشعرة في الماء المقدس كل أسبوع، لكنه يحضر القداس فقط لمرافقة أصوات الجوقة المرتجفة على ألحان كمانه وبالتالي يطمئن نفسه للشيء الذي كان يفتقر إليه بشدة بوصفه مؤديا لمقطوعات البارتيتا لـ "باخ"، ولغرض وحيد؛ ألا وهو الجمهور. ولا يمكننا بالطبع استبعاد احتمال أن يتلو أحدهم الصلاة الربانية بين الحين والآخر في الفراش، وخاصة المصابين بالأرق، بالنظر إلى التأثير المهدئ لترنيمة السلام الملائكية، والمعروف جيدًا لكل طفل عقد إصبعيه في أمل وتقوى أسفل الغطاء، ليكتشف أنه يدخل عالم الأحلام قبل أن يصل إلى نهاية عقد المسبحة. وعلى أي حال، فقد تجاهل "كوري دوبوا"، المبشر السابق الذي يعاني من حنين شديد إلى وطنه في المناطق الاستوائية، جميع الاقتراحات الأخرى وألقى باللوم على العلمنة في هذا الركن المهمل من العالم وعلى الجهد البدني الذي يتطلبه الحضور إلى الكنيسة، وخاصة من كبار السن.

***

لم يكن من الممكن الوصول إلى التلال الثلاثة، "بينونسارت"، و"لو باشيس"، و"شينيا"، التي تكوّن القرية خلال فصول الشتاء القاسية، حيث شكّل كل تل قريته الصغيرة الخاصة طالما كان هناك تساقط للثلوج. عاشت "مدام فيرونا" على قمة ذلك التل الأخير، في منزل أشبه بقطعة بسكويت من تلك التي تجدها في العلب المعدنية. ومن أعلى ذلك التل نزلت في ذلك اليوم البارد من شهر فبراير، يلاحقها كلبها، بينما تخطو وقد باعدت بين ساقيها لتحفظ توازنها وهي تتوكأ على عصاها؛ ساقها الثالثة التي كانت إلى حد بعيد الأقوى بين الثلاث. كان الوقت أواخر الظهيرة بالفعل عندما خرجت، بعد أخذ قيلولة وتناول شطيرة استعدادًا لمواصلة عملها. لون السماء قريب من لون ممسحة قديمة، والطيور على الأغصان في اجتماع للبت فيما إذا كانت ستبقى أم ستذهب، وتتبادل إشارات مألوفة تحذّر فيها من موجة باردة طويلة.

وأدركت "مدام فيرونا" أنها لن تعود إلى المنزل بمفردها؛ على ساقيها بالأحرى، إن لم يبدُ ذاك مبعثًا للسخرية بالنسبة لمن يعتمد على عصا في مشيه. وبعد أن وصلت إلى الوادي، نظرت إلى الأعلى ورأت من المدخنة أن الحطب الذي أضرمته في نار الصباح لا يزال مشتعلًا.

وإن أرادت العودة إلى المنزل، لم يكن لديها خيار سوى الانتظار حتى يمر أحدهم في سيارة ويعرض عليها توصيلها. وبالنظر إلى روح الود العامة في المنطقة، فقد كان هذا أملًا يمكنها التعويل عليه، لكن الظروف الجوية تشير إلى أنه سيكون من النادر أن يخاطر أي شخص بالخروج في هذه الساعة. وإذا لم يأتِ أحد، وكان هذا احتمالًا أدركته أثناء نزولها التل، فستموت بلا شك هنا في برد الليل، لأنها لم تكن تنوي مقاومة ديكتاتورية الجسد مرة أخرى. وفي المرة الأخيرة التي صعدت فيها التل على قدميها، استغرق الأمر ساعات وشعرت بأنها تهين عظامها. ولما وصلت إلى القمة، أقسمت على ألا تسمح لنفسها بأن تقع في براثن غواية التمرد على الشيخوخة، وهو أمر لا يمكن أن يؤدي إلا إلى مزيد من المتاعب، وعلى مستوى آخر، قد يدفع عددًا لا يحصى من الأناس الآخرين إلى أحضان مصانع الأدوية. يعتقد بعض الأشخاص أن الشباب الأبدي يكمن في نوع معين من الزبادي، وأن السر في أن يدهنوا أنفسهم بأشد أنواع الشحوم إثارة للاشمئزاز ترياقًا لأمراض السنين، محاولين العيش بدون أن يبدو أثر الزمن شاهدًا في جلودهم. ومثلما تمتلك جذوع الأشجار حلقاتها؛ لم تحرم "مدام فيرونا" بشرتها من تجاعيدها.. فتلك هي بصمة أيامها.

***

- قد أموت هنا.

هكذا قالت قبل سنوات عدة، بعد أن رأت المنزل لأول مرة مع حبيبها "مسيو بوتر" وعندما تناقشا عما إذا كنت تريد شراءه أم لا. وكأن الموت يسمح لأي شخص كان بأن يحدد أين يموت. وقفا معًا في غرفة المعيشة حيث سيضعان الفراش لاحقًا، لأنه هكذا يواجه شروق الشمس، والعاشقان يحبان التغزل في بعضهما تحت أول ضوء نهار. فتحا النافذة، ونظرا إلى قمم التلال، والمزارع البعيدة والحقول حيث كانت

الأبقار الصابرة ترعى إرضاءً لجزاريها. تأملا الغابة وهي تغرق بسرعة في الظلام، والغيوم وهي تنجرف في تشكيلاتها عبر السماء، والجسر الذي امتد عبر الوادي لكي ييسر الانتقال من ضجيج مدينة كبيرة إلى أخرى. وأسفلهما، يتخذ النهر مساره مثل أفعى رشيقة نسي الناس أمرها من زمن سحيق. وبينما كانا ينظران، تساءلا عما إذا كانا سيتحملان على المدى الطويل كل هذا الجمال البسيط، أو ما إذا كانت هذه العزلة ستأسرهما في النهاية.

هناك منزلهما، وهناك "آوسفيني". ممتلئة بقرويين لا يعرفونهم، وقد تجرأوا على عيش حياة معزولة، من إمكانية تصديق الحكايات التي يرويها سكان المدينة. ربما يكون السكن هنا مغامرة محفوفة بالمخاطر. قالت: "قد أموت هنا"، فأشعل "مسيو بوتر" سيجارة عند النافذة وأبصر مجموعة من الأشجار القديمة التي كان لحاؤها منزلًا شتويًا لحشرات غير مألوفة لهما بعد. أجابها:

- بالتأكيد، هذا منزل يمكنكِ أن تعيشي فيه راضية حتى الموت، ومنزل قد تكوني غير سعيدة فيه. ومن الجنون ألا نشتريه.

وبقدر غرابة منطقه، إلا أنه أبان الحقيقة؛ على من يشتري منزلًا ليقضي فيه حياته ولكي يعيش سعيدًا أن يدرك أن التعاسة سوف تطل برأسها عاجلًا أم آجلًا. ولسوف تتخذ هيئة مرض، أو شيخوخة، أو داء، أو أي شيء من هذا القبيل. لذلك، على من يشتري منزلًا أن يطرح هذا السؤال: "هل أكون تعيسًا هنا أيضًا؟"، وكان مقصده أن جمال المشهد قادر على استيعاب نوبات حزنه ببراعة أفضل من أي مكان آخر. وهي نوبات تراجعت وأضحت أقل، ربما لأنها كانت تنسجم أكثر مع مرحلة الشباب التي صارت تاريخًا اليوم، لكنه ما يزال يفضّل تقديرها حق قدرها. لا بد أن يقفزا في الظلام، ليسقطا في النور.

- سوف نشتريه.

ومن ثم، ضجت الغرفة الخاوية بصيحات ممارسة الحب المبهجة، وبعد ذلك، هندما ملابسهما وقصدا مكتب كاتب العدل.

بدت ابتسامة على محيا "مدام فيرونا"، وهي تتذكر ما كان. أو بالأحرى شبح ابتسامة، على شفتين متحفظتين، وكأنها قوس أحاط بجملة طويلة بليغة بديعة.

ذكرى سعادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

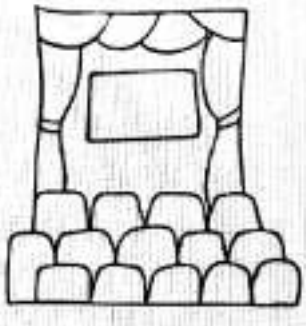

خلال الشتاء، تصبح السينما الكاثوليكية السابقة قلب "آوسفيني" النابض؛ مبنى متهالك بجدران ما تزال رطبة منذ أيام كان المتفرجون يطلقون تنهدات عميقة عند مشاهدة أمثال "جريتا جاربو" و"همفري بوجارت" على الشاشة؛ وقت أن أفلتت تلك الوجوه الملائكية الخداعة من براثن لجنة الرقابة. وقد أزيلت الشاشة الفضية بعد أن انتفخت وتدهور حالها بسبب أبخرة التبغ الصفراء الداكنة، ولهذا السبب ظهر آخر الأفلام بالأبيض والأسود المعروضة هنا بلون بني داكن، ولكن معاناة المبنى المعذب أساسًا استمرت عندما بدأت "سيسيل دي لا شارلوري" في استغلال المكان لطهي كم لا يُحصى من مراجل بلح البحر وتقديمها لكل جائع. بلح البحر بالثوم، بلح البحر في النبيذ الأبيض، جميع أشكال بلح البحر وأنواعه، مع البطاطس المقلية وكرات اللحم بصلصة الطماطم؛ وهي وجبات أثارت فينا بهجةً حتى أننا تشككنا في أنها سعادة لا تُنتهك، ومن هنا عرفنا السبب الذي دفع القساوسة إلى جعل هذه "الإفخارستيا" أساس كل تجمع. بطوننا هي أول من اكتشف السر؛ ليس التجمع، بل الطعام هو ما يقرّب الناس من الرب.

ما يهمني ويهمك في ذلك كله أن "جوردون" هو من بثّ حياةً جديدةً في مقصف السينما القديمة، بعد أن تطوع بإدارة البار لبضع ساعات كل أسبوع. صحيح أن اختفاء آخر مقهى لم يمزق العلاقات الاجتماعية بشكل كامل؛ فلم يبخل أحد بما لديه، وتشاركوا زجاجات الشراب التي أحضروها من منازلهم إلى ساحة القرية،

حيث تنافسوا بمجموعات الكرات الحديدية وجلسوا تحت أشجار الدلب. وبينما هم في حال من السكر والمرح يراقبون كراتهم المتنافسة، كانوا يسعدون بما قد تقتنصه سنارات الصيد التي وزعوها هنا وهناك في النهر، وبعد أن يجمعوا الأسماك وينتهوا من شيها، لا يتوانون عن أكلها بأصابعهم، وبصق الأشواك على الأرض دون مراعاة لشيء. ولكن ذلك في الصيف، عندما يكون الجو حارًا لدرجة أن آفة ثمار الكمثرى تتفشى، وأن سوس العنكبوت الأحمر يدمّر نصف محصول الخيار، ولدرجة أن الناس يفضّلون قضاء الليل في الهواء الطلق، خاصة بعد أن بلغوا من السكر حدًا يعيقهم عن العودة إلى منازلهم. وبعد حفلة واحدة من هذا القبيل، أدركت "مدام فيرونا" و"مسيو بوتر" مدى صعوبة تسلق التل بأرجل أثقلتها الخمر. تعثرا صعودًا كما لو كانا على درب "عمواس" المذكور في الكتاب المقدس، لكنهما كانا راضيين بعد أن وجدا قبولًا من أكثر الأشخاص ثرثرة في القرية.

تتنافس الزنابق اللهيبية في الإزهار مع أشجار الخوخ بأزهارها مزدوجة الأوراق. وهم يصنعون الذكريات المبهجة في هيئة برج مهيب يشيدونه من أغصان أشجار التنوب وجذوعها اليابسة عند حلول شهر مارس، ومن ثم يضرمون النار فيه استقبالًا للربيع؛ فالشتاء هنا قاسٍ، عزلة ووحدة، وهم يتجمعون عند النار المتوهجة ويشربون "الجينيفير" حرصًا منهم على نسيان أيام الشتاء خلال أسرع وقت ممكن. ولهذا السبب افتتح "جوردون" مقصف السينما في أحلك الشهور. ولم يكن به سوى بار وثلاجة، ومشغل أسطوانات عتيق، مهما علا صوته فإنه يضيع وسط أصوات من يتصايحون بأغاني "شارل أزنافور".. "شارل أزنافور" تحديدًا. في الممر المؤدي إلى المرحاض، يوجد تمثال لـ"يسوع"، اكتسب مصداقية كبيرة بعد أن فقد أصابعه؛ هكذا جعلوا منه شخصًا مثلهم، مثل "توش"، وهو رجل يضرب به الآباء المثل لأولادهم كلما أرادوا أن يحذروهم من استخدام المنشار. وبإضافة عدد قليل من الطاولات والكراسي وساعة محطة القطار، نكون قد أحصينا كل ما في المبنى بالكامل. ولكن مهلًا، لقد نسينا أهم شيء على الإطلاق.. نسينا طاولة لعبة كرة القدم.

المقصف أقرب إلى نادٍ منه إلى بار؛ لم يحافظ على ساعات عمل ثابتة ولم تكن هناك أهداف تجارية تفسر انتهاك "جوردون" لقوانين السكر. ولكن إذا كان هناك من

ضمان وحيد لوجود هذا البار الغامض، فهو حقيقة أنه كان مجتمعًا، حيث يتجمع أهل القرية صباح كل أحد للتفاخر بعدد ما اصطادوه من الطير الدراج، والثرثرة حول المحاصيل والمخزون الفائض.

وكان "روبرت" ممن يشربون هناك، وهو عجوز لا يشعر بأنه مستور إلا بقبعته، التي يرتديها في كل مكان باستثناء الجنازات. وبعد أن جذب كرسيًا تمهيدًا للجلوس إلى طاولته المعتادة، وضع صندوق السيجار أمامه كما اعتاد دائمًا. السيجار من نوع رخيص سيئ، والتبغ رديء ملفوف في أوراق ينبعث منها دخانًا أكثر منه عبق التبغ. على الصندوق صورة ملك قصير القامة يرتدي جوربًا من النايلون، والسيجار على اسمه، ولأجل "روبرت" وحده كانت "روزيتا كورتو" تخزن من هذه الصناديق غير المستساغة في متجرها؛ ولم يكن هناك أي شخص آخر في المنطقة بأكملها يفكر في اقتناء هذا السيجار، بغض النظر عن مدى نقصه الشديد. هناك سمة مازوخية في وضع "روبرت" السيجار أمامه، حيث ميّز كل سيجار بالوقت المحدد لإشعاله. وتجد هذه الظاهرة نفسها لدى المدخنين الشرهين الذين بدأوا يشعرون بآلام مفاجئة في الجزء العلوي من الظهر لكنهم يفضّلون الحد من كمية التدخين على الإقلاع عنه تمامًا، ولكن دوافعهم مختلفة من دون شك. لم يكن الخوف من المرض هو ما أجبر "روبرت" على التوقف عن التدخين، بل البخل. كان يقيد نفسه حتى لا يتجاوز المصروف الشهري المخصص له. ويمكنك القول إنه ضبط نفسه على نظام غذائي، حتى لو كان اختصاصيو التغذية يفضّلون عمومًا عدم التحدث عن النيكوتين. وهكذا، وضع "روبرت" سيجاره على الطاولة، وانشغل بالتنصت على الحوارات من حوله بينما يرمق الساعة في ترقب. الجميع في "آوسفيني" على دراية ببخله، لكنهم اعتبروه مرضًا فلم يحاسبوه عليه. وكانوا يهدون "روبرت" كؤوسًا وأكوابًا من الشراب، وعندما يتجاهل أن يرد الهدية بمثلها لمن هم حوله، كانوا يغضون الطرف عن تعمده ذلك، حتى ولو تظاهر بأن عليه العودة إلى المنزل لأمر طارئ.

Telegram:@mbooks90

"روبرت" بلغ سنًا يجعله يستغرق ساعة كاملة للنزول إلى أسفل التل وشرب البيرة، وكان بحاجة إلى مساعدة بالتأكيد. وما إن يصل إلى المقصف، حتى تنتهي مشاكله؛ فهو يعلم أنه سيجد من يساعده في صعود التل. دافعه الذي يستحثه نحو المقصف

هو قوة الإرادة والعناد والعطش، حتى أنه ينزل بالعكس، متكئًا على الأسفلت بيديه، مثل طفل صغير ينزل على السلم، ولا بد أن ذلك يصاحبه إدراك رهيب بأن كل زيارة للمقصف يمكن أن تكون الأخيرة. ولأن ذلك اليوم يقترب؛ كانت ساقاه تتأرجحان بالفعل مثل البندول، وتهتزان وتصدران صريرًا عند الركبتين؛ وهي مسألة أيام قبل أن يعجز عن النزول تمامًا، ولا حتى على يديه، مثل طفل. ولطالما كان ذلك حدثًا حتميًا في مستقبله، ولذلك كان بإمكانه أن يهيئ نفسه، ولكنه لم يفعل. انتهى وقته، وحل يوم أحد لم يعد "روبرت" جالسًا فيه داخل المقصف. هو أول من صارت مأساته نموذجًا أمام "مدام فيرونا" و"مسيو بوتر" ليدركا أنهما يمكن أن يصبحا في يوم من الأيام أسرى هذا التل، وقد فوجئا بالطريقة السريعة التي تجاهل بها رواد المكان كل هذه المخاوف.

آخر سيجار أشعله "روبرت"، بعد أشهر من زيارته الأخيرة للمقصف، كان سيجار الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر. ومن ملاحظة صندوق السيجار، كان من السهل على الطبيبة "لونيت" أن تحدد توقيت الوفاة. ساعة الوفاة على الأقل. أما تاريخ الوفاة، فقد منحت نفسها هامش خطأ قدره عشرة أيام.. تزيد أو تنقص.

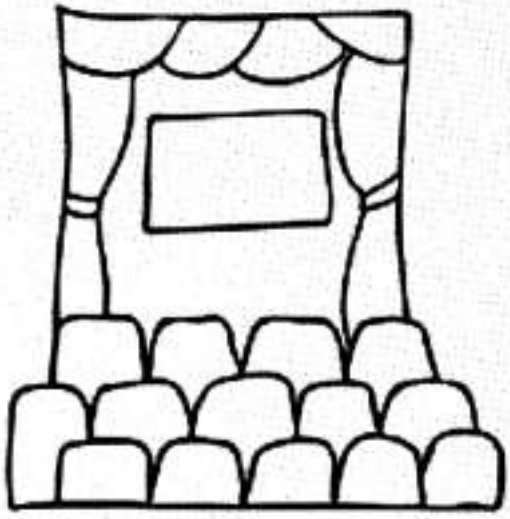

الفصل الرابع

رغم أن والده انتحر شنقًا وتدلى جسده من غصن شجرة وهو بعد في عمر صغير نسبيًا، إلا إن "مسيو بوتر" جاهل للغاية فيما يتعلق بأنواع الأشجار. يعجز عن التمييز بين خشب الزان والبلوط، وإن أمكنه التمييز بين شجرة التنوب والصنوبر، على الأقل حتى تدخلت صناعة شجرة عيد الميلاد وبدأت في زراعة جميع أنواع الأصناف الوسيطة وبألوان غريبة أيضًا. وبالطبع، في طفولته، اعتاد حلول الخريف أن يشجع مدير المدرسة فيطلب منهم تنفيذ مشاريع ذات طابع شاعري، فيقرر تجميع أوراق الشجر ذات الأشكال الجاذبة للنظر، ويخصص دفترًا للاحتفاظ بها وتسجيل أسمائها، بعد أن يجفف الأوراق لعدة أيام متتالية، في جميع أنحاء غرفة المعيشة تحت أكوام من المجلات والكتب السميكة. لقد فاجأته ألوان الموت وحزكت مشاعره، بقدر ما سمح بذلك شبابه، لكن معرفته بالأشجار لم تكتسب أي عمق رغم ذلك. وإن كان بوسعه الآن تمييز الصفصاف. فهي أشجار تقف في كثير من الأحيان وحدها بمعزل عن غيرها، وحيدة لكن عنيدة، تقف في وجه الريح لسنوات. الصفصاف شجرة أشبه بالفلاح في عزيمتها، وذات إرادة لا يمكن كسرها إلا بصاعقة من السماء. ويميز الصفصاف الباكي بصورة أسهل، وذلك لأن معلقا أخبره ذات مرة أن هذه الشجرة تدين باسمها للطريقة التي تدلى بها أغصانها، كما لو كانت تحدّق في الأرض بحزن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما تحاول أغصان الأشجار الأخرى الوصول القمر. أزعجته القصة، لأنه كان يعتقد دائمًا أن شجرة الصفصاف الباكي مبهجة ورشيقة. ولا شجرة مثل صفصاف جذل المفضلة لديه؛ فهي مختلفة تمامًا، حتى أنه استغرب أن أشجارًا ذات شخصيات مختلفة يمكن أن تنتمي إلى العائلة نفسها.

كل هذا يمكن أن يعطيك انطباعًا بأنه خبير نوعًا ما بالأشجار، لكنه عجز عن إخبارنا بنوع الشجرة التي شنق والده نفسه عندها. وربما كان في ذلك خير، وإلا لعجز عن مقاومة الرغبة في البحث عن تداعيات ومعانٍ ربما هي غير موجودة في الأصل. وينبغي لنا أن نذكر معرفته بالنخيل، والتي كان يعرفها بشكل أساسي من الأفلام، وظن أنها ثمار أناناس مشوّهة.

في ذلك الوقت، منذ سنوات عديدة مضت، عندما كشف كاتب العدل عن أوراق حجة منزلهم الجديد وسلمهم تفاصيل حدوده، اتضح أنهما يمتلكان غابة صغيرة مجاورة. لم يرد ذكرها في أي من الإعلانات أو المستندات وكانا سعيدين لأنهما سوف يعيشان بالقرب منها، ولكن الغابة مدرجة بالتأكيد في سعر الشراء وأصبحا الآن مضطرين للحفاظ عليها. مضطران؟ إنهما محظوظان!

***

تربط أربعة طرق عسيرة التل ببقية العالم، ومن بين هذه الطرق الأربعة، اختارت "مدام فيرونا"، في ذلك اليوم من شهر فبراير، النزول من أصعبها. درب الغابة، الذي كان انحداره شديدًا وصعوبة قطعه كبيرة، لدرجة أنه في عطلات نهاية الأسبوع يشق مجموعة من الحمقى طريقهم لأعلاه على متن دراجات جبلية، وهم من هؤلاء الذين اقتنعوا بأن إنهاك الجسد وتعذيبه هو الثمن الذي يطلبه الموت حتى يدعهم وشأنهم في حياة طويلة كلها صحة. وعندما وصلوا أخيرًا إلى قمة التل، نفدت طاقتهم وهرعوا إلى تناول المشروبات الغازية ذات الألوان غير الصحية والمثيرة للاشمئزاز، ولكن ذاك الجهد الذي بذلوه منحهم بلا شك الحق في الجلوس لأسبوع آخر إلى مكاتبهم، متأملين نباتات الزينة التي تذكّرهم بالأفلام الوثائقية عن الطبيعة، التي تواسيهم خلال المساء. أما الحنين إلى رائحة العرق، فدفع آخرين إلى الاشتراك

في نادٍ ينظم لأعضائه مسيرات على الأقدام، وبدورهم أوقفوا سياراتهم في القرية قبل الانخراط في المسيرة وقد ارتدوا أحذية رياضية مصممة لتحمُّل جهد كبير حتى في المناطق القطبية. وقد كشفت الكاميرات التي حملوها معهم عن نزوعهم إلى ممارسة دور البطولة، وهم غافلون عن حقيقة أنهم كانوا يلتقطون صورهم من تحت أغطية المطر، فكانوا أشبه بالرسوم الكاريكاتورية التي صورت مستكشفي القرن التاسع عشر. وتجاهل الصيادون المحليون بحكمة وجود هذه الطريق الممتلئة بالحصى الذي يكاد يغوص في تربة مشبعة. فلا تنسَ أن أجسادهم متينة، مثل إمبراطوريات شُيدت على مدار عقود، وكروشهم مثل قباب الكتدرائيات، تغوي النساء اللواتي يعرفن ميزة الرجل المفعم بالحيوية ويقدرنها، حتى ذاك الذي من فرط بدانته ينبه أي فريسة مسبقًا بصوت أنفاسه الثقيلة والصخب الذي يتخلص به من البلغم العالق في قصبته الهوائية منذ الليلة الماضية، التي قضاها في بار "بينت نوار".

***

لقد مر زمن طويل منذ آخر مرة وطأت فيها قدم "مدام فيرونا" درب الغابة، وهو المكان الذي ربطها بزوجها أكثر من أي مكان آخر. نادرًا ما تكون الطفولة سعيدة، ولكن هنا وجد "مسيو بوتر" أن من السهل نسيان ماضيه البغيض وهو يُعمل البلطة في جذوع الأشجار المريضة تمهيدًا لأن تتحول إلى حطب للوقود، ولكنه وجد بعد عام أن المهمة تصبح أكثر واقعية باستخدام المنشار. وكان عليه أن يحتال حتى يقوم بذلك، لأن الأشجار كانت تقع على منحدر زلق للغاية، فكان عليه أن يربط جسده بحزام إلى الجذوع التي يثق فيها أكثر من غيرها. وعقب ذلك، كان عليه أن يسحب الخشب صعودًا، حيث يبدو عن البعد وكأنه نسخة نحيلة من كائن القنطور، ومن ثم يقطع الخشب إلى قطع أصغر، يقسمه، ويرصه وفق قواعد دقيقة تعلَّمها من أهل القرية ذوي الخبرة. النار هي الفاكهة الأساسية لهذه الأشجار، والدفء هو الحصاد. وبعد تعتيقه في مخازنه لثلاث سنوات، يمنحهم الحطب الرائحة التي بلا شك تستخدمها الآلهة عطرًا، وتمنحهم الحرارة التي لا تضاهيها أبدًا أي حرارة تنتجها الأجهزة الكهربائية. أما جذوع الأشجار التي تبقت في الأرض، فتغطيها الفطريات

وتفعل بها الديدان فعلتها. وفي الأماكن المفتوحة، يحمي الشتلات من نهم الغزلان، ولكنه يعوّض تلك الغزلان بمخابئ صنعها من الأغصان التي قطعها. وحتى عندما لم يكن يعمل، كان "مسيو بوتر" يجد البهجة والمتعة في الوجود في الغابة، ومراقبة أكاليل النور وهي تشق طريقها عبر أوراق الشجر، والاستماع إلى حفيفها بفعل الرياح، إما وحده أو بصحبة "مدام فيرونا"، قبل أن ينزلق معها على زلاجة، في أجواء الشتاء التي تؤكد له أن العشاق أطفال، يحاولون العودة إلى الماضي لاغتنام وقت لم يقضوه معًا. إنها الرغبة في مشاركة الحياة بينهما، لأن الحب يرفض الرضا بالقليل.

ويوم أن علم بمرضه، قرر "مسيو بوتر" خوض معركة أخيرة؛ ألا وهي تكديس أكبر قدر ممكن من الحطب، حتى يكون سببًا في توفير الدفء لزوجته حين يتقدم بها العمر. وقد بكت الأشجار صمغًا فوق حد منشاره. وكل ما كان مريضًا أو مقتلعًا أو فاسدًا أو مخنوقًا بتلابيب اللبلاب، عمد إلى قطعه وتقسيمه وفرزه وجمعه وتكديسه في حديقة المنزل، فشيّد جدارًا صلبًا من الحطب. بدا للرائي وكأنه مصدر دفء لن ينضب، ولكن في صباح ذلك اليوم في فبراير، وضعت "مدام فيرونا" آخر قطعة من الخشب في النار. تلك قطعة الحطب الأخيرة من بين كل ما حمله هو بيديه اللتين أنهكهما الخشب. وعندما دفعت بمحراك النار تلك القطعة الأخيرة إلى أعماق الجمر، كانت قد اتخذت قرارها بالنزول إلى أسفل التل. إنه فعل رمزي، لا معنى له في مقابل حقيقة لا معنى لها، ولكنه أجمل.

***

سرعان ما ستعاود الثلوج التساقط وسوف تمحو ببياضها كل أثر على الأرض. ألقت على الغابة نظرة أخيرة ورأت كيف تعمل الغابة، بعد غياب حبيبها، على أن تعود إلى سابق عهدها، بالطريقة التي أحبها. لقد دارت عبر سنوات حروب بين الطحالب ولحاء الأشجار، مات فيها الدردار واقفًا، واخترقت فيها جذور غاضبة الأرض. لقد بدأ انتقامها، وهي عازمة على استعادة زمام الكوكب، وإعادة تأسيس فوضاها التي تتحدى المنطق، فقد جنّ جنون الغابة. ولكنه جنون جميل. أما الإنسان.. فما كان

ينبغي السماح له بالزحف إلى اليابسة من مرقده في الماء. ربما وجدت في تلك الأفكار فراقًا رحيمًا عن عقلها، مما جعلها تفكر تلك الفكرة الأخيرة.. قبل أن تموت هي بدورها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الخامس

لا أريدك أن تتمهلي وقت أن يحين أجلي.

دثريني، لا بأس، هذا في حد ذاته يكفيني.

وإن أمكنك، وأنت تدثرينني، أن تتبسمي ابتسامة حلوة،

فعندئذ، أغفر لك كل ما تصنعتِ من ابتسامات قبلها.

ولا تمكثي عند فراشي حتى تحصي اللحظات المختلجة

بين أنفاسي الآسنة. ولا تمسكي يدي،

ودعيها راقدةً مثل قفاز حوى ذات يوم

يدًا كانت تبحث عن يدك.

وتغافلي عن سماع حشرجة صدري

بينما يُعمل السرطان معوله

ناخرًا عظمي،

ولا تنظري في عينيّ،

المنكسرتين في مقلتيهما، بينما تحاولان

اعتياد ما ينتظرهما من ظلام دامس لا ليل فيه.

***

ارحلي واتركيني في تلك الغرفة. وحدي.

كلانا ينتمي للحياة.

***

دعك من هذه التفاهة والعبث، وارحلي،

اهبطي الدرج، إلى الحديقة.

وعلّقي فساتينك على الحبل، حتى أراها

عبر النافذة وهي تحييني خلال الريح.

لكِ أن تقلي شيئًا، ربما بعض البصل،

طويلًا في قطعة زبد، حتى تصلني رائحته الشهية هنا بالأعلى،

فأطمئن نفسي: "هي بالفعل طاهية خبيرة!".

***

ولكن، إن قدّر لي أن تحملني ساقاي،

وهو ما أتمناه،

فلسوف أقبض على الدرابزين،

الذي ما يزال بحاجة إلى تلميعه،

وأصيح مبشرًا إياك: "أنا بالأعلى، حبيبتي،

أراكِ بعد قليل".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السادس

لأن أقرب عيادة طبيب بشري كانت في قرية مجاورة، اعتاد جميع سكان "آوسفيني" اللجوء إلى الطبيب البيطري عند المرض. لم يكن الأمر كما لو أن هناك فرقًا كبيرًا بين خنزير وبني آدم على أي حال، هذا إذا كان لك أن تصدّق الملصقات التشريحية على جدران غرفة انتظار الطبيبة "لونيت"، وليس على كل من يرفض قبول أوجه التشابه تلك إلا أن ينزل أرضًا على أطرافه الأربعة للحظة. ما أنت إلا كيس من الحوصلات تتصل به أطراف بواسطة مادة لزجة وهيكل عظمي. أما دورة التنفس والهضم فتحدث في كل الأجساد، أعلى وأسفل، والثقوب في الجسد تفيد في الأغراض القذرة نفسها، ومذاق البشرة واحد بالنسبة للقمل والقراد. ربما كانت هناك اختلافات عرضية في الطريقة التي قسمت بها الكائنات وقتها بين التزاوج والتغذية، لكن جميعها ملاعب للبكتيريا والمكورات والعصيات والحلزونيات، ولديها الغدد نفسها والسرطانات نفسها، وأي شخص يتوقف ويتأمل لا يسعه إلا أن يتساءل عن سبب تقسيم الطب إلى طب مختص بحيوان بعينه وآخر مختص ببقية الحيوانات.

نشأت الطبيبة "لونيت" في محل بائع الصحف القديم، حيث كان المزارعون يأتون لتدخين التبغ وتقضية الساعات بلا هدف بعد ذلك، فهم على ثقة بأن البنجر

في حقولهم لن يتوقف عن النمو في هذه الأثناء. وفي الصيف، عندما ينفتح الباب وتطرد كلاب الرعي الذباب عن أجسادها، يتطاير ضباب السجائر، حاملًا معه أصواتًا أعلى وأشد ثملًا. وبذور عديد من التشخيصات المؤلمة التي ستتوصل إليها الطبيبة "لونيت" لاحقًا غُرست أمام عينيها في محل والدها. في ذلك المحل الصغير اصفرّ شارب "جيلبرت دوك" تدريجيًا بسبب أعقاب السجائر التي لا يلفظها عن فمه إلى أن تجبره سخونتها على شفته المتقرحة على بصقها قبل أن يلعق بلسانه ورقة تبغ أخرى.

لا بد أن استماعها - وهي طفلة تقبع بين الصحف وأرفف التبغ – إلى كل تلك القصص عن صعود تلك القطعان المختلفة ونزولها من على التل، وخاصة نزولها، كان مصدر إلهام للطبيبة "لونيت"، ودفعها لاختيار ما سوف تدرسه، وهكذا خلّدت اسمها في تاريخ القرية بعد أن أصبحت أول امرأة منها تحصل على شهادة جامعية وتعلّقها في إطار جميل. وكانت قدرتها على ترديد الأسماء اللاتينية لجميع أنواع العظام والعضلات دليلًا قاطعًا بالنسبة لهم على ذكائها، ومنذ ذلك الحين، شعروا بالثقة في اللجوء إليها حفاظًا على صحتهم وعافيتهم. وذلك لأنه عندما يتعلق الأمر بحيواناتهم، فإنهم نادرًا ما وجدوا حاجة إلى المشورة الطبية، أو بالأحرى لم يشعروا أبدًا بالحاجة إلى المشورة الطبية؛ فهم يشمرون عن سواعدهم لإخراج العجل من رحم أمه، ولا يحتاجون مساعدة عند سكب المطهر على صوف الخروف المتقيح، وكثير منهم قادر على أن يخبرك أن بقرةً مصابةً بمرض عضال منحته نظرةً حلوةً ممتنةً وهو ينهي حياتها برصاصة من بندقيته بين عينيها الواسعتين. وبالنظر إلى واقع الأمور، يمكن أن تعتبر الطبيبة "لونيت" نفسها محظوظة لأنها تمكنت من وضع سماعتها بين الحين والآخر على صدور بشرية مشعرة بدرجة تكفيها حتى تحافظ على كرامتها المهنية وكونها طبيبة بيطرية، وإلا لاضطرت إلى البحث عن عمل آخر لكسب لقمة العيش.

وإذا كانت المسنات يترددن أحيانًا في فك أزرار أرديتهن أمام الطبيبة "لونيت" المتفحصة، فليس لذلك علاقة بالمساس بكرامتهن عندما يجدن أنفسهن في هذا الموقف حيث تلامس يدي طبيبة بيطرية أجسادهن، بل هو شعور بالحرج بسبب

أنهن ما زلن يرين الطبيبة مجرد فتاة صغيرة، ابنة بائع الجرائد في القرية، ولا يتصورنها طبيبة تسأل عن الأحوال الباطنية لأجسادهن وتستفسر عن لون البراز وتطرح أسئلة يخشى الرجال سماعها لما تفضي بهم سنوات العمر إلى مرض البروستاتا. الطفلة التي كثيرًا ما وبخناها لتسلقها أشجار التفاح الناضجة يمكنها اليوم قراءة طالع الجسد؛ كانت منهم ولا تحتاج إلى أي تكلف. وندم كبار السن على انحسار عادة ارتداء القبعات، فلم يعد الصغار والشباب يبادرون بخلع أي شيء عن رؤوسهم حالما يصادفون الطبيبة في الشارع.

***

عند نزوله من أعلى التل لسماع حكم الإعدام الصادر بحقه من شفتيها، لم يكن "مسيو بوتر" يعتبر نفسه أقل وحشية من أي شخص آخر، كما أنه لم يشك في قدرات الطبيبة "لونيت". ولكن احتمال لقاء هذه المرأة خارج نطاق صفتها المهنية، أي أن يصادفها في الشارع على سبيل المثال، والاضطرار إلى إجراء محادثة مهذبة معها كان أمرًا لا يرغبه البتة. فقد كانت جادة للغاية، وبتسريحة شعر رصينة ونظارة سميكة ثقيلة حتى أنها تركت أثرًا ورديًا عميقًا على جسر أنفها. وعند قياس ضغط دم مريض، كانت تمسك بذراعه وكأنها توشك أن تعضه، وعندما تلبس قفازها المطاطي، يجزع المريض الضحية، فهو يعلم أن ذراعها هذه كانت منذ ساعات داخل جوف بقرة حتى كتفها، وقد تطوعت بأن وصفت له مدى حبها لذاك الشعور الدافئ الباطني الرطب.

في كل مرة تبنيا فيها كلبًا ضالًا، كان "مسيو بوتر" و"مدام فيرونا" ينزلانه من التل ليتبينا إلى أي مدى نالت منه رحلته، وليتحققا من عمره، فيتخلصا منه إذا كان صغيرًا، ويعرفا في بعض الأحيان هوية أصحابه السابقين. وفي كل مرة، كانت الطبيبة "لونيت" تتبنى موقفًا متعاليًا تجاه الزوجين اللذين اهتما بمصير تلك الكائنات المنبوذة السخيفة. أدانت العاطفة والخير وما عدّته تعاطفًا في غير محله بين الإنسان والحيوان. "لماذا تمنحان هذا الكلب منزلًا؟ أنتما لا تعرفان أين كان من قبل، قد يكون خطيرًا. هناك من طارده وطرده، ولا بد أن لذلك سببًا أكيدًا. أنجبا

طفلًا إن كنتما تشعران بكل هذا الحنان المتدفق!". حاول أن تشرح لها أنها أخطأت في المسميات، وأن الأمر لم يكن يتعلق بمنح كلب مأوى بقدر ما يتعلق باختيار كلب لهما. هل هذا مكان يجرؤ فيه طفل على ترك دموعه تسيل على الطاولة بينما الطبيبة تتخلص من قطته بحقنة موت؟

لقد جعل العلم الطبيبة "لونيت" متبلدة المشاعر، ولم تعد حساسة تجاه القلق الذي يعاني منه مرضاها المعذبون على طاولة الفحص. علاوة على ذلك، كانت شخصيتها القوية تمكنها من إجراء العمليات الجراحية في أقل من ساعتين. وكانوا يخشون ثرثرة الطبيبة "لونيت" أكثر من خشيتهم سلوكها القاسي. كل من فحصتهم صاروا يعرفون الأسرار الطبية لكل مريض في القرية. ثارت غضبًا على السكارى والمدخنين، ووضعت أولئك الذين يلتهمون نقانقهم بكميات كبيرة من الزبد في خانة الأعداء، فنادتهم بالاسم وعرفتهم بحالة أكبادهم على أمل أن يصيروا عبرة لغيرهم. ولا أحد يعرف ما إذا كان الأطباء البيطريون قد أقسموا أيضًا قسم "أبقراط"؛ فالخيول والماعز قد لا تمانع طيش الطبيب، ولكنهم يعرفون أنه لا جدوى من التفكير في اللجوء إليها لإجهاض حمل، فلسوف يعرف جميع من في هذه القرية السر وفي اليوم نفسه.

كان "مسيو بوتر" يفكر وهو جالس بين الهياكل العظمية في غرفة الانتظار أنه يتوهم المرض. ولكن الألم الذي ظل يكابده بين الكلى والرئة لأسابيع متتالية، والذي لم يتمكن من تحديد مكانه بالضبط، مما أثار استياء الطبيبة "لونيت" الشديد، بالإضافة إلى نوبات السعال الليلية وأثر الدم الذي وجده في لعابه كل صباح، يصعب أن يعتبره وسواسًا. وبما أنه كان مدخنًا، فقد أخبرته بتشخيصها دون ذرة شفقة، لا تلم إلا نفسك، وقد تقبل تشخيصها على الفور. لم يكن لديه رغبة في انتظار المكوث في غرفة المستشفى ناصعة البياض إلى أن يعلن جهاز القلب مفارقته الحياة، وتنطلق صافرة تؤذن لمغسلي الجثث في المستشفى أن يمارسوا عملهم.

نعلم أنه كلّف نفسه بمهمة جمع أكبر قدر ممكن من الحطب لمحبوبته، ليوفر لها الدفء الذي أراد أن يمنحها إياه في أحضانه. وعندما انتهى أخيرًا، مارس الحب

للمرة الأخيرة، وكانت هذه المرة مدهشة، حتى خُيّل إليه أن "مدام فيرونا" بدت غير راغبة في ترك قضيبه، حتى عندما ارتخى واهنًا إلى حد لا يمكن لعضلات جسدها أن تسيطر عليه. كما لو أنها أدركت ما يخفيه فأرادت إطالة العناق. وبعد ظهر ذلك اليوم، انسحب إلى الغابة.. "يمكن أن أموت هنا".. وشنق نفسه متدليًا من غصن شجرة.. بمقدوره أن يخبرنا عن اسمها بكل سهولة الآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السابع

عيب قرية "آوسفيني" هو حقيقة غريبة تتمثل في أن ذرية الجيل القديم كانت أغلبها من الذكور وهو أمر أشبه بوباء يضرب عادةً، بشكل غريب للغاية، المناطق الريفية قليلة السكان. لنأخذ "لوسي" مثلًا؛ فهي الفتاة الوحيدة في الجيل المتضرر، ولكن حتى "لوسي" نفسها لم تستطع منع مصير "آوسفيني" الذي تؤول إليه تدريجيًا. وعندما تبدأ معنويات أولئك الرجال المهملين تتدهور وتصبح الحاجة طاغية ومُلحة، ينظّم "توش" رحلة إلى مدينة قريبة حيث البغايا على كل لون. ويقضون الليالي بين النساء اللواتي يساعدنهم في التخلص من شواغلهم وهمومهم أيضًا.

ولكن انتبه.. لم يكن الجميع يتطلعون الانغماس في أجواء الغواية والبغاء تلك، لأن أوهام الرومانسية المحطمة تلك لم تكن رخيصة الثمن، كما أنه حدث أكثر من مرة أن توجهوا في الحافلة الصغيرة وهم يغنون مثل مجموعة من تلاميذ المدارس في رحلة، ولكنهم يعودون من عند المومسات في مزاج كآبة قاتل. ولاحقًا، عند ضفة النهر، ستكون جنة الحمقى التي عادوا منها موضوع حكايات طويلة يتبادلونها، ويلوكونها بسخرية وبشيء من المرح في أفواه ممتلئة بالنقانق أو قطع السمك، ولكن كل واحد منهم يدرك في قرارة نفسه أنه بذلك يعود حبيس عالمه الخاص. وتجد رجلًا مثل "ألفريدو" مرعوبًا جدًا من وقاحة المومسات لدرجة أنه كان يضطر إلى

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إغراق مخاوفه عبر فرط الاستغراق في اللحظة، لدرجة أنه عندما يصل إلى نقطة الخلاص التام، يغضب ويسخط بشدة لعجزه عن العودة إليها من جديد بعد ذلك.

ويعود سبب عدم ولادة أي بنات هنا في العقود القليلة الماضية إلى أسباب وراثية جينية معقدة، ولكن الناس في "آوسفيني" تصالحوا بالفعل مع فكرة أن بذرة السكارى الفاسدة تعجز عن إنتاج أي جمال. وكانت هذه إشارة إلى الأيام التي كان فيها الشمال لا يزال معدمًا فنزل رجاله إلى هذه البقعة باعتبارهم عمالًا موسميين. وكانوا يبيتون في البارات ويعملون في حصاد بنجر السكر. كانوا شبابًا وسيمين أهلكهم الفقر والبطالة والملل.

كثيرٌ منهم كان يغادر مسقط رأسه للمرة الأولى في حياته، ولم يسبق لأغلبهم أن مارس أي عمل. وفي قراهم، تنتظر الأمهات، والزوجات في بعض الحالات، أجورهم ورسائلهم. لكن قلة منهم كانت قادرة على الكتابة، ومنعهم كبرياؤهم من إملاء تفاصيل حنينهم إلى قراهم على من يمكنه التعامل مع الورقة والقلم. كما أنهم كانوا قد ثملوا بأغلب أجورهم بالفعل.

وهكذا، انتقلت فتيات القرى، اللائي نظرن وتلمزن وضحكن وتغزلن في الشماليين (لم يبقَ منهن إلا الصور الآن، ولكنهن يبقين في تلك الصور فتيات مكتملات الأنوثة إلى الأبد)، من طور العذرية إلى هم الأمومة خلال سقطة واحدة في بئر الغواية. لا شيء يمكن أن يكون أبعد من فكرة الأبوة في عقول معظم الآباء من ذاك القبيل؛ وبمجرد أن تعود عربات الروث إلى حقول البنجر، وينتهي الحصاد، حتى يتوجه الشماليون الوسيمون إلى قراهم، بعد أن تركوا وراءهم وعودًا كاذبة لن تكفي لتهدئة الغوغاء الغاضبين، ولكنها تكفي لأن يراقب مدير محطة القطار تلك المناديل المبللة دموعًا ومخاطًا وهي تلوّح لهم بينما يطلق صافرته إيذانًا بتحرك القطار. أما الأبناء الذين ولدوا من سفاح الخداع هذا بعد أشهر، فقد حملوا أسماء أمهاتهم، بعد أن أبقين سر ذاك الغرس الفاسد سرًا عن الكنيسة والحكومة. ومنذ ذلك الحين، أصابت اللعنة أرحام القرية، فلم تعد تنجب إلا البنين، إلا في حالات شديدة الندرة.

***

الكنيسة أدرى بمخاطر العنوسة، كما أن خشية الضرر النفسي شجعت شباب المنطقة على حزم حقائبهم وتجربة سحرهم في مكان آخر. وهنا أذكر لك حالتي "دومينيك" و"فنسنت". حتى باعتبارهما نموذجين ناجحين، فإن تجربتهما في أحضان نسوة مختلفات لم تجعلهما سعداء على الإطلاق، لأنهما أدركا بعد فترة أن مذاق ذاك الدجاج مختلف عن الذي يذكرونه ويتوقون إليه. اشتاقا إلى صيحات البوم، التلال، وأصوات القطط التي تطلقها عند التزاوج فلا تعرف هل نجحت أم فشلت في إشباع رغباتها، والغناء في مقصف السينما الكاثوليكية، وشي النقانق تحت سماء صيفية مرصعة بالنجوم، وطعم النبيذ محلي الصنع. أرادا أن يعلما أبناءهما الذين يكبرون بسرعة كيفية تخطي المصاعب في نهر طفولتهم، وناقش كل واحد منهما زوجته حتى اقتنعت بالذهاب للعيش في تلك البقعة النائية حول التل.

***

أما "داميان" فكان أقل حظًا؛ فقد ظل مغرمًا غرامًا قاتلًا بـ"لوسي"؛ "لوسي" الوحيدة.. القديسة.. الانطوائية.. الرقيقة مثل نسمة تهب على شجيرة، ولم يكن أمامه خيار سوى الانتظار حتى تكون أكبر من أن تقدر على تقديم أي عون. لقد تُيِّم بها "داميان" المسكين، الذي أصبح بفضل شجرة عائلته والميراث أكبر مالك للأراضي في المنطقة بحلول سن العشرين. حتى أصبح الآباء والأمهات يتطلعون إلى إنجاب بنات لأجل مصاهرته، لدرجة أنهم يسعون حثيثًا للتقرب إليه ولا يبالون بشيء حتى ولو كانت رائحة السماد العالقة به حتى النخاع، غير أنهم لا يعرفون أن ملاكًا قد نفخ في "بوق القدر" عند كل سرير؛ فصار المصير محتومًا، ولن يقدّر لهم إنجاب أي بنت، مهما حاولوا من حيل ومهما جربوا من أوضاع لتحقيق هذه الغاية أثناء ممارسة الجنس. وبقيت "لوسي" استثناءً، كما لو أن الطبيعة الأم أرادت أن تترك بصمتها ودلالة على قدرتها، قبل أن تعود إلى سالف قرارها بأن تكون هذه البقعة من الأرض للذكور فقط.

***

في القصص التي قرأوها وقت كانوا أطفالًا في فصل الأخت "زوي"، نادرًا ما كانت

القوارب حقًا قوارب. كانت زوارق.. لا.. كانت سفنًا شراعية، تنقل الأبطال مباشرة إلى شواطئ الجنة. ولكن هذه الكتب لم تثر فيهم أي اشتياق إلى أماكن أخرى.. لا في "داميان"، ولا في "ألفريدو"، ولا في "ماتسا" ولا في "تيبو"؛ فقد بدا أن كل عزاب القرية محصنون ضد تلك الأفكار. كانوا يمتلكون أسرع سيارات بأكثر الألوان بريقًا، ولكن لم يكن لدى أيٍّ منهم أدنى نية للانطلاق في رحلة أسطورية خارج المنطقة. هذا هو المكان الذي كانوا فيه سعداء تمامًا؛ ويعرف كل من مارس القمار والرهان أن أغلب الناس لا يفضلون الاستسلام لإغراء القدر. لقد تقبّلوا العيش في ظل ندرة النساء. ليس عن سرور، ولكنه الرضا بالأمر الواقع. فمن يتأمل واقع الحال يجده مؤلمًا، ولكنه ليس قاتلًا.. وقد اعتبروه قانونًا. كما أن المرء لا يبحث عن المرأة، بل يصادفها. لذلك مكثوا هنا، على ضفاف "جيمونتفو"، حيث يغنون ويثملون. وانظر كيف تغيرت حظوظهم للأفضل.. لقد ترملت "مدام فيرونا" ولكنها بقيت هنا.. على حالها.

كما لو أن الشمال أرسل مبعوثه.. لتحصيل ديونه.

الفصل الثامن

قبل أن يعرفا مذاق الفراق والبعد، يقسم كل عاشقين على ألا يسمحا للحياة بأن تفرقهما، ويمنح كلّ منهما للآخر صك وجوده ومعناه، حتى يصبح غياب أحدهما تمهيدًا لغياب الآخر. ومع التقدم في السن، وهي طبيعة الحياة في الغالب؛ يعني موت أحد العاشقين أن يسرع النصف الآخر إلى قبره دون أدنى جهد إضافي من جانبه للتشبث بالحياة. ولكن الشباب لا يملكون ترف الموت مثل البجع؛ فقلوبهم قادرة على أن تحتمل الحزن، لذا يضطرون إلى اللجوء إلى تلك الأساليب التي قرأناها وعرفناها من أعمال "وليام شكسبير". وبالطبع، أخبرت "مدام فيرونا" زوجها ذات مرة أنها ستتبعه إلى ما تخيلته، ربما بشكل خاطئ، ظلامًا لا نهاية له، لتقسم بذلك يمين العشاق، وكل من يجد في نفسه حاجة إلى التشكيك في صدق اليمين وإخلاصه لا يلومنّ إلا نفسه.

هل كانت رائحة اللحم هي التي دفعت الكلب إلى النباح عند شاهد المقبرة في اليوم الذي انتهوا فيه من إعداد مستقر "مسيو بوتر" الأبدي، أم أن شيئًا آخر هو الذي جذبه إلى هناك؟ راقبتهم "مدام فيرونا" وهم يضعون اللوح فوق قبر حبيبها ومشت وحدها، وهو أمر ستفعله في مناسبات عديدة مقبلة، عبر قمة التل العاصفة والمرصعة بشواهد قبور الموتى. أسماء ارتبطت بالتاريخ غير المنطقي لهذه القرية ولم تعد تهم أحدًا. أضحى حبيبها الميت ضمن إرث القرية باسمه الحقيقي، واسمه

الشمالي، وهو الاسم الذي كانت الدوائر الحكومية تكاتبه به ولا يعرفه به أحدٌ هنا.

أطلق القرويون عليه اسم "بوتر" بعد أن سمعوا أنه فنان، واستنتجوا أنه يجب أن يكون صانع فخار وخزافًا، ربما لأن الناس هنا يفضّلون استخدام الأباريق والمزهريات على سماع السوناتات. ولا يعني ذلك أنهم انزعجوا عندما عرفوا أنه ملحن موسيقي، إطلاقًا، ولكنهم ارتاحوا لاسم "بوتر". وعندما نزلت "مدام فيرونا" أخيرًا في طريق المقابر، توقف الكلب عن النباح عند الشاهد الرخام، وتبعها، وواصل متابعتها. كان في انتظاره في ذلك المساء وجبة ضخمة، حيث إنها لم تستطع التعود على الطهي على قدر احتياجها وحدها، ونام على بطانية يمكن له أن يميزها برائحته. وهكذا، وقبل أن تنتبه لذلك، انشغلت "مدام فيرونا" بشؤون عيش ما تبقى من حياتها.

***

توقع الناس وصول شاحنة وصعودها الطريق الصعب أعلى التل، وعودة "مدام فيرونا" إلى مكان ما حيث كانت تعيش قبل الانتقال إلى هنا، فذلك هو مفترق الطرق الذي يقدر لكل إنسان أن يمر به عدة مرات في حياته، حيث يجرب منعطفًا آخر في الحياة. فقد افترض الجميع أن الانتقال إلى قرية "آوسفيني" النائية كانت فكرة "مسيو بوتر". فالمعروف أن الفنان يدير ظهره للحضارة حتى يتسنى له صنعها؛ فهم أشبه بالنشّاك، ومنهم من قطع أذنه، ومنهم من استمد ألوانه من مياه المحيط. يغلّف الشعراء كلماتهم بالغمام، ويتحدثون في ضباب مثل أرباب غمسوا فُرَشهم في ضباب كثيف، وشأنهم في ذلك شأن الملحنين، لا ريب.

وكان "جان بول"؛ وبالمناسبة فإن "جان بول" هو الذي اشترى ذيول الخيول من المزارعين ليشد بها قوسه، وهو الذي عزف أنغام الترانيم على كمانه في الكنيسة، هو من جذب انتباه أصدقائه إلى التشابه بين "مسيو بوتر" وبقية الملحنين الأشهر منه. وذكر لهم "رافيل"؛ العظيم "موريس رافيل"، الذي ألهم لحنًا اشتهر حتى أصبح صفيرًا منغومًا في أفواه عمال البناء ومصففي الشعر وموظفي المكاتب والمديرين ومربيات الحضانة، وكل من يتسلى في انتظار فتاة تأخرت عليه، أو من تتسلى

في انتظار فتى تأخر عليها. فهو بدوره فارق مدينته، باريس، ليعيش في تل بعيد في "مونفور لاموري". وقد كان تدرج التل حادًا لدرجة أن "رافيل" كان يتنقل في حديقته مثل بهلوان السيرك، وكان من ينقلون أغراضه إلى أعلى التل يسبون ويلعنون البيانو الكبير خاصته. وهو بدوره خلق إيهامًا بالعزلة على أمل كتابة تحفته، وهو الطموح الذي نعرف اليوم أنه تحقق. المهم.. ما أقصده هو أنه كان هناك أكثر من سبب يدفعنا إلى الاطمئنان إلى

أن "مدام فيرونا" لم تكن هي التي أصرت على الانتقال إلى هنا.

عندما سألوا "مسيو بوتر" عن طبيعة عمله، أوجز لهم بعض الكلاسيكيات؛ "متتالية التشيلو" لـ"باخ"، وأداجيو" لـ"باربر"، و"ستابات ماتير" لـ " برجوليزي"، وأوضح لهم أن نوعًا معينًا من العمليات الجبرية المطبقة على هذه المقطوعات الثلاث المعروفة ستتناغم مع ما ألّفه، على الأقل فيما يتعلق بمزاج المستمع. فالموسيقى الحزينة تسرع نمو نباتات المنزل، وهو استنتاج لم يكن "جان بول" وحده هو من توصل إليه. وكان "توش" أحد أكثر شخصيات القرية قسوة، والذي اعتاد أن يشتري عملًا سيمفونيًا بين الحين والآخر، بل ويستمتع بالاهتمام كلما سخر منه الآخرون بسبب ذلك. ولكن لا أحد أقدر من "تشارلو" على أن يخبرنا بما يقوم به "مسيو بوتر"، فهو عملاق يزن طنًا من الشحوم، ولكنه كتلة مزجت الدهون بالمحبة، لا يشبع ما إن يجلس إلى طاولة، وله يدين تذكران مؤرخي الفنون بتحفة "بيرميك". رجل يمشي بين قطيع خنازيره وحزام سلاحه حول خصره، حتى يختصر عليها الطريق إلى خطاف الجزار. ولكنه صادق في حبه لأغاني "دانيال بالافوان".

وما لم يكن قد عقد العزم على أن يثمل، فإن من المستحيل أن يصل إلى حد السُكر، ولكنه يصل بين حين وآخر إلى تلك الحالة الحلوة التي تسبق السُكر، والتي يمر بها كثير من الناس سريعًا للأسف، وعندئذ ترتسم ابتسامة هائلة من الأذن إلى الأذن، ويغني، أو يصفر بالألحان على النحو الذي تتوقعه ممن يمضون شطرًا كبيرًا من حياتهم بين الطيور. وقد أحب "مسيو بوتر" تلك الأنغام، بل وزار "تشارلو" في منزله بين حين وآخر لتدوينها. لكن "تشارلو" يعجز بعيدًا عن الخمر في أن يقدم له

نغمًا يستحق التدوين. ولهذا السبب، شاهد الناس "مسيو بوتر" وهو يغادر التل حاملًا ثلاث زجاجات من "الويسكي" وأوراق نوتة موسيقية، متجهًا إلى منزل "تشارلو"، في نهج علمي يشبه زيارات "بارتوك" للغجر حتى يدون موسيقاهم وأنغامهم. ومع الزجاجة الثالثة، تتصاعد النغمات من صدر "تشارلو"، فيغرد من الجانب الآخر للطاولة ويسرع "مسيو بوتر" في تدوين كل ما يسمعه، وكأنه كاتب اختزال في حضرة شحرور. وقد وردت عديدٌ من تلك الأنغام في ألحان "مسيو بوتر"، لكن "تشارلو" لم يمتلك أبدًا شجاعة حضور أي من عروضه، وذلك لأن خزانة ملابسه لا تحتوي على ملابس تليق بحفل موسيقي رصين.

***

لكن اقتناء تلك الملابس لم يعد ضروريًا الآن. فقد مات الملحن، وبقيت أرملته على تلها. وهي من منح "آوسفيني" قوة. ولن تجد "مدام فيرونا" مختلفة أي اختلاف عن صورة الأرملة التي كثيرًا ما قرأت عنها في القصص أو سمعتها في النوادر. هي ذات شعر أحمر يتدلى في خصل حلزونية حتى كتفيها؛ وبشرة بيضاء كقشرة بيضة؛ وعينين لامعتين وكأنها تنظر إلى شمس ظهيرة أبدية. رقتها ولينها؛ وتلك الابتسامة التي تحرر كل شيء من نفسه، نقية بحتة مثل الرياضيات، وقادرة على أن تشل حواس الأشخاص الأكثر رقة؛ والساقين غير المعقولتين؛ وكل تفصيلة ممتلئة يمكنك أن تتخيلها فوق تلك الساقين. لها جسد وهبته لشخص لم يعد موجودًا وأصبح الآن مسكونًا بفراغ، تحبه. كلما نظرت إليها، شعرت أنها ثروة ضائعة. ستبقى هنا، وسيزول جمالها من أكل النقانق كأولئك الذين تسخر منهم على ضفاف نهر "جيمونتفو". بقيت، مدركةً أن التل سيصبح لاحقًا مستقرها الأبدي والطرف الثاني في عقدها القاسي مع العزلة والوحدة. وعليك أن تمتدح ذلك فيها، خاصة وأنها من أهل الشمال. ويوم أن انتشر الخبر عبر تلك التلال.. غنى الرجال بينما يتبولون عند مجرى النهر: "مدام فيرونا" باقية! "مدام فيرونا" باقية!

الفصل التاسع

وقت استطاعت النعاج أن تلعق وِلدها بصعوبة، كان عمال المحاجر يسعلون ويبصقون غبار الصخور المتراكم في رئاتهم في الحوض، وقد غُسِل ترمس الشاي، وظرقت حدوات الخيول، وزُرعت الحقول، وجُرف التبن وتراكم، وضُبت الخرسانة، وشلم الخشب وأحصيت النقود.. باختصار، عندما انتهى الكل من عمله وحان وقت نسيان أن الغد يوم آخر على منوال اللعق والسعال والشطف والطرق والزرع والجرف والصب والتسليم نفسه، أملًا في أن يكون هناك من النقود ما يكفي لعده؛ عندها فقط.. عندها فقط، سيتوجه الرجال إلى مقصف السينما الكاثوليكية القديمة للشرب والتسرية عن النفس. ولأن النوم دائمًا ما يكون أحلى بعد الانتصار، أي انتصار، فقد انقسموا إلى فرق تتنافس حول طاولة كرة القدم، يلعبون لعبة لا يمكن اعتبارها نسخة بديلة من كرة القدم كما نعرفها، ولكنها كانت لعبة متكاملة. وهم يرونها مختلفة، وأنها من حيث الأهمية والصعوبة أفضل بكثير من اللعبة الأصلية.

بأقصى تركيز وهم متحلقون فوق أرض الملعب، يوجهون كل قوة أكتافهم وأذرعهم إلى معاصمهم حتى يتمكنوا، بدوي مرتفع جاف، من إرسال الكرة الخشبية إلى الطرف الآخر، وليتها تتجه مباشرة في المرمى. تعرقوا وهم يراوغون ويحتالون على اللاعبين الخشب المعلقين في قضبان حديدية، يبحثون عن ثغرة تمر منها

الكرة، ويجرفهم الحماس فينسون أنهم هنا في الأصل لتناول البيرة والسجائر. والأسوأ من ذلك أن أي لاعب يتجرأ على قطع اللعب ليأخذ نفسًا من سيجارة أو جرعة من بيرة فإنه يصبح محط أنظار عصبية موبخة، وهذا لأنه عطّل إيقاع اللعبة وأزعج تركيزهم. كانت الشتائم وصيحات الفرح تخرج محسوبة، وأي تجاوز ينال نصيبه من نظرات الاحتقار الشديدة.

منافسة جادة للغاية، كانت حربًا، وكما هو معروف، فإن الحرب عمل جد خطير ولا يمكن ترك أمره للجنود ورجال السياسة. وفي الوقت نفسه، كانت مباراة كرة قدم الطاولة أو "التيبل فوتبول" هذه فرصة مثالية لمراقبة استمتاع الرجال بملذات كهذه بالدرجة نفسها لاستمتاعهم بحمامات الدم. الكرة الصغيرة التي تروح وتجيء وترتد وتهتز؛ اللاعبون الصغار المنحوتون من الخشب، في فريقين أحمر وأزرق، على قضبان فولاذية تتوسل أن يقوم أحدٌ بتزييتها. وعندما انفجرت الصيحة.. "أوليييه" من حلقي لاعبي الفريق وتم تعديل لوحة النتائج بدقة سادية، حلت لحظات صمت قصيرة سمحت للاعبين بتجفيف عرقهم قبل وضع الكرة في منتصف الملعب تمهيدًا لاستئناف اللعب مرة أخرى، واستئناف أصوات المعركة. سوف تكون أحلام الليلة التي تقترب أجمل عندما يتحقق الانتصار على الفريق المنافس؛ وعندئذ يرفع الفائزان الطاولة عن الأرض حتى يتمكن الخاسران من الزحف تحتها أمام أعين الحاضرين، وكأنها قوس نصر. إنه إذلال بالغ. وبعد ذلك يغمرون رؤوسهم المتعرقة في حوض المقصف أو يزيلون الرائحة المزعجة عن آباطهم الساخنة برذاذ مزيل لرائحة العرق. ويتكبد الخاسران كل شيء؛ فيدفعان ثمن جولة الشراب التالية بينما يتعللان بالنقرس أو الفتق أو غيرهما من أمراض الجسد كأعذار يرونها مشروعة لأدائهم المتدني.

***

كان "مسيو بوتر" قادرًا على الحفاظ على احترامه خلال هذه المباريات، ربما لأنه قضى جزءًا من طفولته في مدرسة داخلية حيث حاول القساوسة التخفيف على تلاميذهم من خلال إتاحة ساعة ترفيهية كل مساء في قاعة بها "تيبل فوتبول"

وأخرى لتنس الطاولة. لقد اكتسب درجة من المهارة وفهم اللعبة، وربما كانت تلك هي الفائدة الوحيدة من سنوات قضاها في المدرسة الداخلية؛ إلى جانب كرهه الشديد للدين، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن بين أبرع لاعبي "أوسفيني". كان يعتز بانتصاراته، وله انتصارات، ويشعر بمتعة طفولية تستمر معه لفترة أطول مقارنة بالآخرين، الذين كانوا دائمًا ما يتخيلون أنفسهم بارعين في الحياة مثل براعتهم في اللعب. ولكن سرعان ما تذبل ورود النصر الخيالية هذه في اللحظة التي يتحداهم فيها خصومهم الراغبون في الانتقام ويدسون قطعة نقود في فتحة اللعبة بكل ثقة.

أما النساء فلا يلعبن، أو هكذا كان السائد. ولكن كبار السن في هذه القرية يخبرونك بأن هناك بالفعل عددًا قليلًا من السيدات اللائي جربن حظهن في اللعبة. وعندما تحدى "مسيو بوتر" و"مدام فيرونا" فريقًا آخر، لاحظا مدى صعوبة إقناع أي أحد باللعب ضدهما. فالآخرون لم يكن لديهم الحماس، وذلك ببساطة لأنه لا يوجد ما يستدعي الفخر في هزيمة امرأة. وبدلًا من اللعب ضد امرأة، كانوا يفضّلون اللعب مع امرأة في الفريق نفسه. لأن الشخص الذي يمكن أن يفوز مع وجود امرأة بجانبه يعد بارعًا بحق حينئذ. وبإمكانه بالسهولة نفسها أن يطيح بالفريق الآخر وحده، كانت هذه هي الفكرة، وهذه هي طريقتهم في التفكير. ففي هذه اللعبة، أن تكون زميلًا جيدًا أمر، وأن يكون خصمك جيدًا أمر آخر أهم كثيرًا.

***

بطبيعة الحال، كان الرجال سعداء وهم يرون "مدام فيرونا"، الأرملة، ما تزال تنزل من التل لارتياد مقصف السينما القديمة، حيث يجيد المرء التعامل مع الماضي من خلال نسيانه، وكانوا يحكون في حضرتها قصصًا عن "مسيو بوتر" ولكن بحذر، حتى صارت قادرة على احتمال الألم. كما لو أنه لم يكن موجودًا من قبل، وكما لو أن أحدًا لا يصدق أنه ليس من الجيد لها أن تسمع الناس يتحدثون عنه مجددًا. وربما لهذا السبب لم يُطلب منها أبدًا الانضمام إلى اللعبة، فقد اعتادوا رؤيتها وهي تلعب جنبًا إلى جنب مع "مسيو بوتر"، وتذكر الناس فجأة أنهم لم يعتدوا رؤيتهما منفصلين أبدًا (وهو أمر غير صحي في نظر بعضهم). افترضوا أنها لا تريد أي ذكريات عن اللعبة

سوى تلك التي جمعتها مع زوجها. وعلاوة على ذلك، تذكر الناس أنها كانت تتقبل الهزيمة في اللعبة بهدوء وبصدر رحب، رغم أن الرغبة في الفوز كانت همها الأول.

لاحظ اللاعبون تشجيعها وقبلوا أن تشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ولكنهم لم يفكروا أبدًا في دعوتها للانضمام للعب. إلى أن كان يوم ألقت فيه عملة معدنية على الطاولة، وقبضت بثقة على مقابض القضبان، وقالت:

- حسنًا، من لديه الشجاعة الكافية؟

كان من الممكن أن يعدوها تقلد تصرفاتهم في محاكاة ساخرة، ومن المحتمل جدًا أن يكون احترامهم لذاتهم هو الذي دفعهم إلى تفسيرات أخرى. مثل: بهذه البادرة تنحي "مدام فيرونا" حزنها عنها، فهي مستعدة لبدء حياة جديدة. وبطبيعة الحال، لا يحصل أحد على حياة جديدة، فهذا مجرد مجاز لغوي. ليست الحياة قصة مكتوبة في دفتر؛ فلا يمكنك وضع خط تحتها ومن ثم الشروع في كتابة قصة مختلفة تمامًا في الدفتر نفسه. ولكن الناس أحبوا اللجوء إلى مثل هذا الوهم عندما يصعب عليهم الإخلاص للذكرى وامتلاك شجاعة عيش الحياة. وهكذا.. ابدأ من جديد، وقسّم كل شيء إلى فصول حتى يمكنك إتمامها، وأخبر نفسك باستمرار بمدى سهولة تلك المهمة.

تلك هي طبيعة البشر وتلك هي الطريقة التي رتب بها البشر تاريخهم. لقد رسموا خطًا تحت الإبادة الجماعية المنظمة وبدأوا قصة جديدة مع مساحة للضحك والشعر وإنتاج إعلانات عن الملابس الداخلية. حتى يبدو الأمر كما لو كان البشر أنفسهم هم من يرفضون البشرية ويعيدون اكتشافها مرارًا وتكرارًا، كما لو لم يكن لهم علاقة بماضيهم. ولهذا السبب تجد من البشر مَن استطاع أن يرسم لوحات تصوّر تفاصيل معارك شنيعة وقعت في يوم من الأيام، وهناك من البشر مَن تأمل تلك اللوحات ووجدها آيةً في الجمال والإبداع.

ولهذا سوف تصبح جميع عمليات الإبادة الجماعية ذات يوم لوحات فنية يشيد الناس ببراعة تصويرها. ولهذا السبب، أو هكذا فكروا للحظة وهم متحلقون حول طاولة كرة القدم، بدأت "مدام فيرونا" حياة جديدة. لأنها لا يمكن أن تسمح لنفسها

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أن يحبها شخص آخر إلا في حال كانت الحياة التي عاشتها مع "مسيو بوتر" حياة مختلفة. وحدها الحياة الجديدة هي التي يمكن أن تجعلها تعتقد أن الحياة القديمة ماتت مع مَن عشقته. وهذا هو السبيل الوحيد الذي يقنع أرملة شابة بأن تهب جسدها دون شعور بالذنب.. دون الشعور بأنها تخون.. فحيثما توجد حياة، توجد شهوة.

وبالفعل، رغب الرجال في لعب كرة قدم الطاولة معها. وهذا لا شك فيه. معها في الفريق نفسه أو ضدها. ولا شأن هنا لخوفها من الفوز. فهم بدورهم كانوا على استعداد لإتمام فصول الحياة، والانصراف عن الفصول غير المكتملة، لبدء فصل جديد تلعب فيه امرأة دورًا أكثر بروزًا وحضورًا.

الفصل العاشر

تخيّل العزاب أنفسهم وهم يمارسون الحب مع "مدام فيرونا"، مدفوعين بآثار شرب زجاجة "باستيس" تحت الشجرة. ورغم أن رغباتهم الجامحة تلك لم تنسحق بالكامل تحت وطأة خيالاتهم، فإنهم خلصوا إلى أنهم لن يعودوا إلى الوادي بعد ذاك "الحدث العظيم" إلا خاسرين. يمكنهم بالفعل تخيّل أنفسهم في الطريق، هادئين لكنهم مترددون، ربما ليطيلوا فترة تأمل الجمال وسط أجواء الكآبة، أيديهم في جيوبهم، وقد طارت ألبابهم، على النحو المفترض أن يكون عليه المرء بعد ممارسة الحب. ولكن أيًا من خيالاتهم تلك لم تمتلك شجاعة تخيل الاستلقاء والنوم بين ذراعيها بعد ليلة حب. وذلك لأن الناس لا يكونون صادقين حقًا إلا في حال نومهم. عندئذ، تنفث روائح كريهة فتنتشر، وتطلق ريحًا وتحلم بصوت عالٍ. ولذلك، لن تقبل "مدام فيرونا" أن تكون على راحتها على هذا النحو مع أي إنسان، مرة أخرى. وهكذا، يضطرون إلى مغادرة الفراش، ولملمة ملابسهم في صمت وتفهُّم. يقول لها، في فخر الجريح: "أفهم.. لا تنهضي، سأغلق الباب خلفي"، قبل أن يلقي نحوها قبلةً في الهواء بفتور. وسوف تقول: "أنا آسفة"؛ ليس لعشيقها، ولا حتى لنفسها، ولكن للشاب الذي في الصورة بجانب فراشها. كانت تقضي الليل بمفردها محاطة برائحة ممارسة الحب الطازجة والمحرجة، ربما لأنها تعلمت بطريقة أو بأخرى في هذه الأثناء تقدير العزلة. ولأنها أرادت أن تبكي من قلبها. وخلال مشيه نحو أسفل التل، لن يكون لدى العاشق أي شك في أنه تركها وراءه تبكي. دموع حقيقية، مثل تلك التي ذُرفت في فجر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البشرية، وقت أن كان بوسعك جمع الملح من فوق وجنات الباكيات.

اعتقد بعضهم أنه حتى هذا الخيال كان مبالغًا فيه، وعدُّوا الوجود معها في غرفة النوم فرط جرأة، فهذا هو المكان المرتبط بماضيها العاطفي العتيد. فلا بد أن "مسيو بوتر" قد ترك بصمةً لجسده في المرتبة، مثل تجويف تحب أن ترقد فيه بلطف في المساء، وكأنها في أحضانه. لا يمكن أن يكون هناك شك في اختيارها لذاك المكان عندما فضل الأخرون الصمت وعجزت، الأرملة، عن الكلام لأول مرة. ليس بداعي الحرج، ولكن لتذوق الكلمات. كلا، عليهم أن يفكروا في الأرضية الباردة القاسية، فهذا منطقي أكثر. في أشد الحالات رأفة، سوف يقومان بممارسة الحب فوق الأريكة أولًا، ولكن الأوضاع الصعبة ولهفة الجنس وتحسس الجسد والتفكير المفاجئ في ضرورة وضع مناشف فوق الأريكة لتجنب ترك أي بقع عليها.. كل هذا من شأنه أن يفسد المتعة.

***

وبطبيعة الحال، سوف يصل الرجل إلى رجفة الخلاص أولًا. ربما أسرع مما ينبغي، وقبل حتى أن يقترب من فقدان نفسه في أعماق الإيقاع الذي وصلا إليه معًا. ولكنه تمكن من إطالة الوقت، بالتفكير في أولئك الزنوج الذين لا ينهكون ولا ينتهون سريعًا، فلربما كان لواحد منهم أثره في دمه الأبيض، يستدعيه ويتوسله، ومن دون أن يفكر ولو لثانية أنه قادر معها أن يكبح جماح جهده، وأن حرب الاستنزاف التي خاضها معها لم تكن إلا استعراضًا لفخره الذكوري، لا أكثر ولا أقل.

***

ندخل في تخيلاتهم، وهم لا يمانعون، ونراها مستلقية فيها هناك على ظهرها. عارية تمامًا، لأنها لا تستطيع تحمل متعة ممارسة الحب بينما نرى قطع الملابس ملقاة حولها هنا وهناك كانت ذلك في الأيام الخوالي، في بعض الأحيان. أما هنا، فالغرض من عريها أن تجنّب تعريض نفسها لأكثر مما هو ضروري، لكنها وحدها تعرف ذلك. إنها تتحمل ذلك، ولكن تحملها ليس خضوعًا. يداها في خصلات شعره، وذلك لأن عليها أن تضعهما في مكان ما. ورغم أن صورة مثل هذه تفتح الباب أمام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عديد من التفسيرات، فإننا نحب أن نعتقد أنها تفعل ذلك لتوجيهه، أو بالأحرى لتقييده وتلجيمه، فعندما تشعر أنه يحاول أن ينزل برأسه لأسفل، مثلًا. عندئذ سيفهم من حركة يديها.. ليس هذا ما أريد.. ليس بعد. ولأنه يريد أن يترك انطباعه الذي يفتخر به، فإنه يظهر التفهُّم والصبر، ويرفع رأسه مرة أخرى.

وإذا نظرنا إلى تلك اليدين في ذلك الشعر، نلاحظ إصبعًا فيه حلقة لبشرتها أفتح قليلًا، ذاك هو أثر الخاتم؛ أجل الخاتم، لأن الخواتم الحقيقية لا تحتمل أن تُذكر نكرة. هو الخاتم الذي لم تعد ترتديه الآن. تخلع بعض النساء خواتمهن قبل ممارسة الحب مع عشيق، بغض النظر عن مدى اقتناعهن بذلك من عدمه، و"مدام فيرونا" بالتأكيد واحدة منهن. هذا رمز يعتمد على فلسفات الروح والحياة ويتجسد هنا في صورة خاتم الزفاف. وضعت "مدام فيرونا" خاتمها على الخزانة، وهي تعلم أن نظرة واحدة عليه سوف تدفعها لأن تنفجر في بكاء بلا هوادة. وهي سوف تبكي لا محالة. ولكن ليس الآن. هذا المساء. أو هذه الليلة. وهي راقدة في ذلك التجويف وحدها. لذلك تنظر لأعلى. نحو السقف، كما قد نظن، لكننا مخطئون. إنها تنظر من خلال السقف. وإن أغمضت عينيها للحظة، فلسوف يقول لنفسه: "إنها تحب ما أفعله بجسدها الآن، فيجب أن أحافظ على هذا الإيقاع". وهكذا، يركز على حركة، وعلى بلوغ بقعة بعينها في داخلها. وتقول هي لنفسها: "يداه تتحركان، ولكنهما لا تشعران". وإن كان لها أن تبلغ رجفة الخلاص، لبذلت جهدًا لبلوغها، ليس من شهوة، ولكن من شبق وجوع، من احتياج جسدي كيميائي، ولكنها طلبت منه في النهاية أن يتوقف. لقد اكتفيت منك؛ بل لم يكن علينا من الأصل أن نصل إلى هذا الحد. لذا، دعنا نتظاهر بأن ما جرى لم يجر.

لا ينبغي أن يكون هناك قمر في السماء، لا نصف بدر ولا بدر، ولا ينبغي أن يهطل المطر بين غزارة ورذاذ، وقت نزول العاشق نحو أسفل التل. لا ينبغي أن يكون هناك أي شيء، لا ليل ولا نهار، بينما يعرف أنها في تلك اللحظة تستحم. لقد تجنب هذا الإذلال على الأقل. فهو لم يبت معها الليل، ولم يضطر لرؤيتها وهي تتسلل إلى خارج الفراش، ولم يضطر لسماع صوت خرير المياه في الجوار. لأنها تنظف نفسها بإسفنجة حتى تمحو عنها أي أثر له. قلة من الرجال يمكنهم احتمال فكرة أن تهرع

المرأة إلى الحمام مباشرة بعد المضاجعة، وهو ليس منهم. تعود إليه مبتلة وجديدة، لترقد بجانبه وقد أعطته ظهرها بعد اختفاء أي أثر واضح لما وجُدهما منذ برهة. تفوح منها رائحة الربيع الندي أو مياه المحيط الباردة أو غير ذلك من عبق الصابون الذي انزلق على بشرتها. وعندئذ، يجد بهجته الوحيدة في التسلي بأحد كلابها، كلب الصيد، الذي قبع بلا حراك لما سمع صوت رجل ينزل الدرج، وشاهده يغادر المنزل منفردًا، قلبًا وعددًا، ويشعر بسعادة بالغة بعد أن أدرك أنه لم يعد هناك من يشاطره حبها واهتمامها.

***

أجل، كان هذا ما سيكون عليه الحال، وعرف الرجال ذلك باعتباره حقيقة لا مراء فيها، وحتى عندما شربوا زجاجة ثانية من "الباستيس" فشلوا في اقتياد أفكارهم إلى مسار آخر. لم تكن هناك أي متعة في معاشرة أرملة تفعل ذلك لأول مرة منذ وفاة زوجها. ورأوا أنه من المستحسن الانتظار حتى يقوم شخص آخر بهذه المهمة. سوف يجربوا حظهم معها لاحقًا، بعد أن تنتهك "مدام فيرونا" العقد الذي بموجبه منحت جسدها لزوجها الذي لم يعد زوجها، وبعد أن يتوقف كل رجل يضاجعها عن التفكير في "مسيو بوتر" بينما يعض شفتيها. وحتى ذلك اليوم، كانوا يستقلون الحافلة الصغيرة إلى الفتيات في "لا نبتون"، ليغنوا ويشربوا ويداعبوا الأجساد البضة المستلمة لهم. وما لم تسمح لهم "لوسي" بالتغني باسمها، قبل أن تنتظرهم بين الأشجار بينما يقترعون ليحددوا مَن منهم سيضاجعها أولًا. كانت هذه خطتهم. أن يتحلوا بالصبر؛ فهي حيلة نجحت مع الأشجار. أربعة عشر رجلًا أعزب يجتمعون تحت الشجرة، تحت سماء حالكة السواد مرصعة بالنجوم، يمتصون التبغ بشراهة إلى أن يتحول إلى كتل هلامية لا تستحق سوى البصق، يتحدثون عن الأحلام التي حاولوا التشبث بها قبل أن تتبخر، وقبل أن يصعدوا التلال متثاقلين إلى منازلهم.

وليس من أحد هناك.. كي يرسمهم.

الفصل الحادي عشر

أعود بك إلى ذلك اليوم البارد من شهر فبراير، حيث نرى أن "مدام فيرونا" لا تزال في الوادي، جالسة على مقعد خشبي طويل من تلك المقاعد التي وضعها المجلس هناك لمنفعة من يرهقه المشي، والكلب يرقد عند قدميها في ثقة عمياء. هي تعلم أنها لن تعاود الصعود، وأنها وصلت إلى النقطة التي أصبحت تمثل فيها الماضي. من المحتمل جدًا أن يسمح لها جسدها بالاستمرار في العيش لبضع سنوات أخرى، ولكنها تعوّل على قوة الإرادة كي تموت اليوم. بدأ الثلج يصبغ العالم ببياضه، وكأنه يحاول طمسه. لأنها لن ترى أبدًا أيًا من الأشياء التي تخضع لذلك الغطاء الأبيض مجددًا.

لم تحب أبدًا النظر إلى الأشياء بالطريقة التي اعتدناها عند النظر إليها للمرة الأخيرة؛ بلدة قضيت فيها عطلة ممتعة، والآن تتقلص ببطء في المشهد داخل مرآة السيارة، قطار يتحرك بينما رأس الحبيب بارز من نافذته مودعًا. يبدو الآن أنها تستمتع بتلك النظرة، ربما لأنها هي نفسها جزء من هذا الاختفاء، من يدري؟ تتنفس رائحة الثلج، فتعود ثمانين عامًا إلى الوراء، عندما كانت رائحة الثلج كهذه تمامًا، وقد شرّحت تلك الرائحة لأول مرة، والتقمتها في فمها وتركتها تذوب ببطء.

لكن أصابعها هي محور انتباهنا في هذا المشهد. تنقر على ذراع المقعد. مثل إيقاع طبل رتيب. نقول إن السبب هو نفاد الصبر، ولا يمكن لأحد أن يلومنا على استنتاجنا. أو ربما تفعل ذلك لتخفيف وطأة البرد. حتى لو لم تكن خائفة من الموت بسبب المكوث في البرد خلال ليل مقبل. لا بد أنها سمعت ما يكفي من القصص عن متسلقي الجبال المتهورين الذين ازرقت أجسادهم من شدة البرد وهم في منتصف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مغامرة التسلق، وانتابهم هذيان وماتوا وعلى وجوههم شبح بهجة. وعندما نمعن النظر إلى تلك الأصابع، نلاحظ أنها تتفاعل بغرابة مع إيقاعات حركة قدميها. كأنها تشغّل دواسة ماكينة خياطة غير مرئية. كما أنها تنقر بأصابعها بطريقة محسوبة مدروسة.

من المؤكد أنها تجيد العزف على البيانو، فهذا واضح. لحن مبهج بسيط علّمته لعدد لا يُحصى من الأطفال في مدرسة الموسيقى، كما اعتادت أن تفعل طوال تلك السنوات؛ تقضي الساعات على مقعد البيانو بصحبة الصغار شبه الموهوبين، الذين لا تتجاوز أحلامهم رغبة أن يتمكنوا يومًا ما من عزف لحن أغنية من أغاني الحفلات، لأجل نيل رضا الضيوف وسماع عبارات الاستغراب: "لم أكن أعرف أنكِ ماهرة في العزف على البيانو! برافو!". وقد شاهدت "مدام فيرونا" منهن عددًا يفوق الكفاية بكثير.. مراهقات يجلسن إلى البيانو في ضجر يعبر عن حقيقة مشاعرهن تجاه دروسها.

أما الأولاد، فيلتحقون بدروسها عندما يفشلون في اكتساب قدر مرضٍ من المهارة في أي رياضة تمنحهم نوعًا من المكانة بين أقرانهم، وتلتحق الفتيات بسبب إعجابهن بالفساتين التي رأينها على أجساد عازفات البيانو في التلفزيون؛ أناقة اعتبرنها ضرورة لمصاحبة عذوبة الأنغام. وبعضهن كنّ "بنات أمهاتهن"، اللائي يحلمن بتقديم أداء مثير للإعجاب عشية عيد الميلاد، حيث يسود الصمت بينما تعزف الفتاة على البيانو وجدها إلى يسارها وخالتها إلى يمينها، وبعد أن تكون قد عرضت نتائج امتحاناتها المبهرة على أفراد العائلة بأكملها، وقبل أن تمنع نفسها بصعوبة من إظهار مدى تقدمها في دروس رقص الباليه. راقبت "مدام فيرونا" اليافعين واليافعات وهم يفرغون طاقاتهم بالرقص في صالات الديسكو حيث تنطلق الألحان من ماكينات "الجوك بوكس" لتنال شيئًا فشيئًا من مَلكة تذوق الموسيقى، وتلك كانت قناعتها الراسخة، والتي تغضب لها كلما علّق أحدهم بحذر قائلًا إنها أفكار محافظة أو بوادر التقدم في السن.

اعتاد طلابها التذمر من دروس "الصولفاج"، والمبادرة بتذكيرها بمغنيي الروك

الذين لا يمكنهم التمييز بين الـ"ري" والـ"سي" ولكنهم ما زالوا يحققون النجاح تلو النجاح، والطلاب يأملون في السير على خطاهم. اعتقدوا أن المقامات والطبقات لا معنى لها واستخدموا الكلمات البذيئة التي تصادف أن كانت موضة في زمنهم لوصف أساليب أشهر معلمات الموسيقى ومعلميها، تلك الأساليب التي يرفضونها. وهي بدورها قد خبرت مثل هذه الأمور وقت أن كانت صغيرة تتقدم عامًا بعد عام في فصول الموسيقى التي تضاءل عدد مَن يحضرونها بمرور الوقت؛ لقد تلوث مفهوم الانضباط في ظل نظام رجل مجنون وأتباعه، ولم يبذ أن أحدًا يدرك أن الآلة الموسيقية تحتاج الشيء نفسه الذي تم استخدامه ذات مرة للوصول بالعالم سريعًا إلى نهايته. ونادرًا ما كانت جهودها تسفر عن ندم أحدهم على التخلي عن دروس الموسيقى في سن مبكرة للغاية.

***

أدركت "مدام فيرونا" أن زملاءها يعتبرونها زوجة. زوجة الملحن التي يحترمه بعضهم ويمقته بعضهم الآخر. وكلما طالت مدة استمرارها في التدريس، قلّ شعورها بالارتياح في العالم الذي التقت فيه زوجها ذات يوم. هي: تجاوزت طفولتها للتو، خجولة، الفتاة التي أثقلها التشيلو.

هو: يدخن بنفاذ صبر خارج غرفة البروفة، عازف البيانو الشاب الواعد ذو القميص المتأنق والأظافر المهملة. السنة التي سبقت مغادرته لدراسة التلحين في معهد الموسيقى.

حتى ذلك اليوم، كانا على هامش حياة بعضهما، جمعهما درب الحياة. والآن، عليهما أن يعزفا معًا، تمرينًا، مقطوعة "فوري".. "ذا سيسيليان"، ولن ينسيا ذلك اللقاء من بعد ذلك أبدًا. وكانت النتيجة مثيرة للشفقة؛ تعرّقت يداها وانزلقت أناملها على الأوتار، ووصف المعلم ما حدث بأنه بمثابة انتهاك للحرمات. ولكن العلاقة بينهما تعززت خلال الشهر نفسه وسط حدائق المدينة، ووقعا في الحب، وأحبت أن تسمعه وهو يتحدث إليها بمعرفة موسوعية، على النحو الذي يتوق الشباب إلى نقله لصديقاتهم. وسرعان ما أصبح الجميع يومئ إلى علاقة الغرام تلك التي جمعت

بين "جاكلين ودانيال"، كما أسموها على اسم عازف تشيلو وعازفة بيانو جمعت بينهما الحياة قبل أن تدمرهما بشكل مأساوي، في قصة لن يكون تحويلها إلى فيلم سينمائي إلا مسألة وقت فحسب. آه.. تلك الأيام المحملة بالآمال والوعود الجميلة.. قبل أن تحل هذه الليلة قارسة البرودة.

سرعان ما أصبحت معلمة في معهد الموسيقى. معلمة بيانو، من بين كل الآلات.. فهذه هي آلته. وفي غرفة المدرسين أثناء فترات الاستراحة، أشغلتها زميلاتها بثرثرة عن حقائب اليد، البرامج التلفزيونية، وصفات الطهي، مزايا أحدث آلات صنع القهوة وعيوبها، مطعمها المفضل لتناول "الريزوتو"، أي نبيذ يجب شربه مع فيليه سمك "الساشيمي". وكانت تتثاءب في ضجر. وتتجنب التورط في الثرثرة بالاكتفاء بإيماءات مقتضبة. وفي يوم ميلادك، عليك إحضار الشوكولاتة، وهو تقليد في غرفة المدرسين يجعلها تواجه في كل عام حقيقة أنها نسيت عيد ميلادها مرة أخرى، مما دفع الآخرين لأن يخلصوا إلى أنها ليست بخير. ماذا تفعلين هناك في تلك الغابة؟ لن تلتقي أبدًا أي شخص بهذه الطريقة. عودي إلى حيث الحضارة. تعرفي على رجل. الحياة تستمر، أو هكذا يقولون.

***

أما الأغنية التي كانت تنقر لحنها بأصابعها على ذراع المقعد في ساعاتها الأخيرة فكانت تلك التي كتبها "مسيو بوتر" تلبيةً لطلبها، حيث كانت تبحث عن لحن يجعل الصغار يستمتعون بالعزف على البيانو. وكثيرًا ما عزفته هي بنفسها، أثناء نومها، بأصابعها على الملاءة. وأكثر من مرة انتبهت فيها إلى نفسها وهي تنقر اللحن على عجلة القيادة عند إشارة حمراء. استقر اللحن في أصابعها، وفي قدميها، حتى أنها في إحدى المرات، وسط حلم من أحلام اليقظة، انتبهت قبل أن تنتهي حياتها عند مفترق طرق، بعد أن نست أن قدمها ما كانت تعزف لحظتها إلا على دواسة بنزين سيارتها. وعدّتها فرصة ضائعة، بل أجمل طريقة اقتربت فيها من.. ماذا تسميها؟ القيادة حتى الموت بينما عقلها يعزف ذلك اللحن.

لكننا نخطئ إن اعتقدنا أن "مدام فيرونا" ستترك الفرصة السانحة تضيع منها في

هذا اليوم من فبراير، وهي غارقة في حلم يقظة أثناء جلوسها على المقعد، وقد استحال عقلها إلى صندوق موسيقى لن يُغلق أبدًا مرة أخرى. كان هذا ما أرادته.. من دون شك، لكنها لم تقدّر البرد حق قدره، وفضّلت أن يكون انتقالها إلى الخواء من دون ألم. نهضت. حتى تحرك ساقيها للحظات، وقد حسمت قرارها. ونفض الكلب الثلج عن جسده، وهو يهز ذيله، سعيدًا ببادرة لهو جديدة.

- لن تكون هناك عظام، يا صفير، حيث تتبعني.

لم يبدُ منزعجًا بما سمع.

- يجب أن نجد لك منزلًا جيدًا أولًا.

أرادت أن تغادر مثل شعاع ضوء؛ بهدوء ودون ضجة. والآن أدركت أن الموت عمل شاق دموي وأنه سيطلب منها فعل الكثير قبل ذوبان هذا الثلج، وتدفق الأنهار، وقبل أن تنتشر حملان الحياة الأبدية في كل مكان.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الفصل الثاني عشر

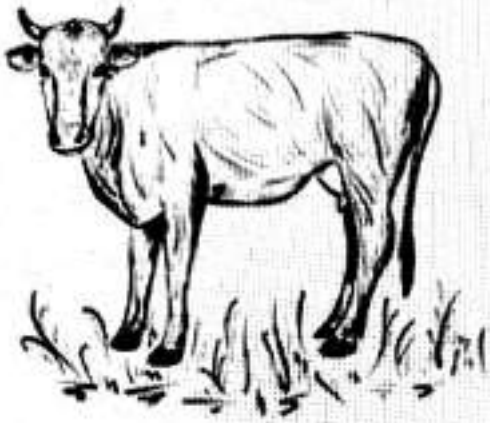

لن ينسى أحد أن هذا قد جرى في العام الذي أصبحت فيه بقرة عمدة لـ"آوسفيني". بقرة.. أجل، بقرة.. بقرة "بلوند داكيتين"، يعرف المزارعون أنها سلالة استثنائية من البقر. جعلها ردفها الهائل ملكة المعارض السنوية، وكان جلدها الناعم ذا لون يتناسب مع معظم قطع الأثاث حتى الحديث منها، وعندما تخور لم يكن ذلك عن استياء أو ضيق، ولكنه صوت فطنة وذكاء. ويصعب عليك أن تجد مزارعًا يضرب تلك "الداكيتين" الشقراء أو يجبرها حتى تصعد في شاحنة. لم تكن مجرد حيوان، معذرة لو كان عليك أن تجاريني، بل جميلة آسرة اتخذت شكل بقرة بعد مغامرة جمعتها بالآلهة. ولقد اعتاد الإغريق تشبيه البشر بالحيوانات، بكل طريقة وفي كل اتجاه، ولا تزال حماقتهم هذه تُدرس حتى اليوم دون أي أثر لسخرية. رغم أن هذه مشاعر تشبه اعتراض الطفل على تناول لحم الأرنب الذي كان يربّت عليه بالأمس، إلا أن عديدًا من المزارعين وجدوا استحالة في تناول لحم هذه الشقراء. وهكذا، بقيت البقرة "الداكيتين" ترعى، في حقل أو في وادٍ، فكان ذلك زواجًا سعيدًا بين جسد وتربة.

***

تتفهم طبعًا أنه قد كان هناك عمدة، حقيقي، براتب وتقدير ملكي، يظهر للناس

في الاحتفالات ويوجد بينهم كلما اقتربت الانتخابات، بدين وفير اللحم غزير الدم، لا يفوته غداء عمل، أو شرب الخمور في حفلات الاستقبال، مهتم بالعناية بلافتات الطرق، وغرامات وقوف السيارات، وتسمية الشوارع، وتنفيذ مخطط البناء. مهمته التوقيع على تصاريح الصيد البري وتراخيص صيد الأسماك، فهو ممثل القانون، الضاحك المتفاخر بعد كل نكتة، الذي يومئ في تعاطف مع كل لفتة وبعد كل جملة. لم يَكِن أي أحد ضغينة تجاه الرجل، لكن حياته تدور بين أكوام من الأوراق، ومكتبه بعيد جدًا خلف التلال، في المدينة، حيث يبت في مصير سبعة مجتمعات أخرى كذلك.

***

ليس هذا فحسب، فقد كان عضوًا في حزب سياسي، وهذا لا يعني الكثير هنا، حيث تشرق الشمس على الكاثوليكي والاشتراكي والليبرالي وكل صاحب مذهب وفكر بالقدر نفسه. ولكن هنا أيضًا من عانى في حرب خاضها بين الأخيار والأشرار، وبعد ذلك كان الرأي أن القناعات السياسية تعد من المحرمات. شعروا بالحاجة إلى عمدة منهم، شخص لا يحتاج إلى التنازل عن وعوده التي يقدمها لثمانية مجتمعات، ويبتعد عن الروتين، عمدة مثلهم؛ يتجشأ ويضرط دون خشية إساءة. شخص لا يدين لأحد. شخص يوكلون إليه مهمة وحيدة؛ ترفيه "آوسفيني" وتسليتها طوال فترة ولايته. احتفالات.. هذه هي مهمة العمدة.. إقامة الاحتفالات والألعاب ولا شيء غير ذلك. وحيث إن الذين يكسبون رزقهم من الأرض معتادون على لعب "التومبولا" يومًا بعد يوم، فقد أدركوا أنه لا ينبغي انتخاب هذا العمدة بالوسائل التي حددتها الديمقراطية، ولكن يجب أن يكون اختياره من خلال لعبة.. لعبة "التومبولا".. لعبة الصدفة. وسبقت الانتخاب اجتماعات أوضح فيها كل واحد وجهة نظره، حيث كانت قوة الحجة تتحدد بعلو صوت صاحبها. وبقي السؤال.. كيف يمكنهم غواية القدر واقتياده إلى "آوسفيني"؟

أخيرًا، قرر جميع الحاضرين أن على المرشحين لمنصب العمدة البحث عن شيء ما، وأن هذا الشيء، وبعد مزيد من الجدال والثرثرة، هو ثمرة لفت. واستقروا على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختيار أمسية في شهر يوليو بديع الطقس، ونصبوا خيمة في الوادي وقدموا كثيرًا من الشراب لدرجة أن الغناء سيمسي أمرًا لا مفر منه في وقت لاحق من تلك الليلة. وحبسوا الطامعين في المنصب داخل الخيمة حتى يتمكنوا من إخفاء اللفت في الحقول التي خصصها العجوز "كانيه" لهذا الغرض ليبحثوا عنها. وعندما فتحوا ستار الخيمة، سارع الرجال متسابقين، يركضون في دروب "آوسفيني" للوصول إلى الحقول، التي بدت بهيجة، أكثر من أي بهجة غمرت حقلًا من قبل.

وعامًا بعد عام.. ركض الرجال في الشوارع مثل ثيران فُكّ أسرها، وكل منهم مهووس بفكرة العثور على ثمرة اللفت. وقد يكون تسرعهم هذا منطقيًا خلال الانتخابات القليلة الأولى، لكن عديدًا من الانتخابات اللاحقة أظهرت أن البحث عن ثمرة اللفت يمكن أن يستمر لعدة أيام، فلِمَ العجلة إذن؟ لم تكن أراضي "مسيو كانيه" واسعة فحسب، بل إن الوحل الذي يغطي اللفت جعل من السهل تجاوزه دون أن يلاحظه أحد. نصفه مدفون دائمًا، وأحيانًا كان النصف الآخر مغطى بطبقة من الروث للتأكد من انشغال المتنافسين على العرش لفترة طويلة وسط الوحل وخراء الأبقار.

ومثل كثير من الأمور الطفولية، كانت التجربة ممتعة للغاية وقدم عديدًا من العمد الرمزيين، وكل منهم، وبدافع الفخر وحده، بذل جهده ليصبح الأفضل والأكثر إبداعًا والأكثر مرحًا، والأكثر في كل شيء. ولن تجد لوحة تحمل وجه أي من هؤلاء العُمد، وإذا شعر الحمام برغبة في التبرز عليهم، فعليه بالإسراع وأن يحسن التصويب، لأنه لن يجد أي تماثيل نصفية تحتفي بسياسات مجيدة طبّقها أي عمدة. ولكن خلودهم في الذاكرة مضمون، وأشد صدقًا كذلك، فبعد الإعلان عن العمدة الجديد، يرقص السكان ويشربون حتى توشك ضُرَع مثاناتهم على الانفجار فيركضون.. كلٌ إلى مبولته.

***

لن ينسى أحد أن هذا قد جرى في العام الذي أصبحت فيه بقرةً عمدةً لـ"آوسفيني".. ظلت ثمرة اللفت في مخبئها لليلة الثانية على التوالي، وقد بحثوا عنها في كل مكان ثلاث مرات بالفعل، دون جدوى. واتهموا "فايكنغ"، الذي كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتقاعد عن منصب عمدة ذلك العام ونال شرف إخفاء اللفت عن خلفائه الطموحين، بأنه دبّر مقلبًا، خاصة وأنه قادر على فعل ذلك، ولم تجد تأكيداته المتكررة بأن ثمرة اللفت مخبّأة على النحو المعتاد سنويًا أي آذان صاغية. وبحلول صباح اليوم الثالث، كان من الواضح أن "فنسنت" و"داميان" وحدهما القادران على الاستمرار في هذا الماراثون، إلى أن ظهرت ثمرة اللفت بغتة في فم البقرة الشقراء.

هناك قوانين يجب الالتزام بها؛ من يجد ثمرة اللفت، أيًا كان، ينل الوشاح ثلاثي الألوان ويصبح من حقه أن يكون عمدة "آوسفيني" لعام واحد. وهكذا، غينت البقرة عمدة، ولم يجادل أحد. كما نصت القوانين على أن يسير العمدة الجديد في موكب نصر من الحقل إلى خيمة الحفل في سيارة "بنيامين" الصغيرة. وبالطبع، لا بد أن البقرة اعتقدت أن لحظة نحرها قد حانت وهم يحركونها عنوة ليقحموها في السيارة الصغيرة. ولا بد أنها تخيلت قوالب التقطيع الخشبية وقبعات الجزارين الملطخة بالدماء. إنه مستقبلها: مقطعة وملفوفة في أوراق كاروهات باللونين الأحمر والأبيض. ولكنها عندما وصلت إلى الخيمة ووجدت كل إنسان هناك يقترب ليقبلها على فمها، وعندما سمعت مالكها يتحدث عبر الميكروفون ليعد الناس بأنها، لدواعي منصبها، لن تُقاد إلى المجزر البتة، هدأت تمامًا عندما ربطوها عند حوض ممتلئ بالبيرة. وكما تنص اللوائح: يجب أن يرقص العمدة الراحل مع العمدة الجديد. وهو ما حصل. ولم يكن "فايكنج" من هواة الرقص حقيقةً، ولكن الفقرة التي قدّمها مع البقرة أظهرت أنه يتعلم ويحقق تقدمًا واضحًا في هذا المجال. ولا يتذكر أحد ما انتهى إليه الحفل، ولكن المؤكد هو أن الجميع ابتهجوا ورقصوا، وأن الجميع قد نسوا ناقوس الموت.

استمرت شقراء "الداكيتين"، التي أضحت أول عمدة أنثى في القرية بحكم الأمر الواقع، ترعى حقلها منذ ذلك اليوم والوشاح حول جسدها. يحييها كل من يمر على الحقل.. "صباح الخير، أيتها العمدة".. وفي أيام الأعياد يدللونها بخبز الثوم. ولكنها لم تنظّم لهم أي احتفالات.

***

وعلى أي حال، لن ينسى أحدٌ أن هذا قد جرى في العام الذي أصبحت فيه عمدةً،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وقد كان "تشارلو" أول من نشر الخبر: لقد شوهدت "مدام فيرونا" مع رجل. وليس ذلك فحسب، فقد شوهدت "مدام فيرونا" مع رجل في أرضها. وليس ذلك فحسب، كان الرجل يرتدي بدلة، متأنقًا إلى الحد الذي من شأنه أن يُضحك أيًا من أهل القرية على الفور. ولم يمكنه التحقق مما إذا كانت تمسك بيده أم لا. ولكنها بعد فترة وجيزة كلّفت "تشارلو" بمهمة قطع الشجرة التي شنق زوجها نفسه عندها، وهو ما أبهجه كثيرًا، فهو غير متزوج. لقد وجد في ذلك الطلب نقطة تحول. بيان أوضح من أن يمكن تجاهله. لقد انتهى حداد "مدام فيرونا". وستكون مسألة وقت قبل أن تغيّر ألوان ملابسها. من كان يظن أنها قررت قطع تلك الشجرة المهمة للغاية بالنسبة لها، وأنها متعجلة في اقتلاعها من جذورها؟

صحيح أن الأبقار تباشير جمال.. ولكن قداستها، حتى تلك اللحظة، كانت مقتصرة على الهند.. الهند وحدها.

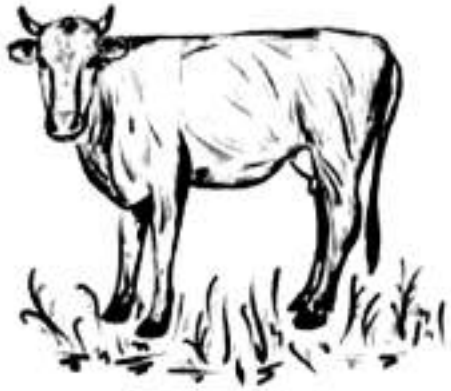

الفصل الثالث عشر

لما أغلقت "روزيتا كورتو" متجرها للمرة الأخيرة، أدرك الجميع أنها بداية سنوات من الوحدة والعزلة. أنزلت الساتر الحديد المتعرج ببطء، كمن يسحب علمًا عن صاريه في موقع عسكري فقده. ولكن أي شخص يحاول أن يضفي قيمة رمزية لهذا البطء، يتجاهل عمرها؛ فقد كان التدهور الشيء الوحيد الذي تجيد فعله، وقد فقدت إحساسها بإيقاع الحياة تمامًا. كانت تسمع ذلك الصوت يأتيها من جميع الجهات منذ فترة طويلة "بحق الرب، "روزيتا"، ماذا تفعلين طوال ذلك الوقت الذي تقضينه في متجرك، أليس من الأفضل لك الاستمتاع بسنواتك المتبقية في هذه الدنيا؟"، ولكن أحدًا لم يتطوع لمساعدة صاحبة متجر متقاعدة، وطالما أنها تديره، فإنها على ثقة بأنها ستجد كفايتها من الثرثرة اليومية مع أي أحد. لقد باعت كل شيء يمكن بيعه في مرحلة ما من حياتها، وكلما طلب شخص ما شيئًا ليس لديها، تبادر بتوفيره له على الفور، وبكميات كبيرة جدًا غالبًا. ويتذكر الجميع كيف بقت برطمانات الرنجة المملحة في مكانها على الرف لثمانية عشر عامًا دون أن تبارحه. ويأتي الأطفال لمجرد إلقاء نظرة عليها، يراقبونها بأعينهم وهي تتحلل شيئًا فشيئًا. كما تركت الخضروات التي لم تتمكن من بيعها لتتخمر في علبها لسنوات، مما أدى في بعض الأحيان إلى تشقق تلك العلب لتنبعث منها رائحة كريهة لخمسمائة جالون من السماد السائل في المتجر لأسابيع.

لكن، من وجهة نظرها، لم يكن هناك شيء غير قابل للبيع، وهو مبدأ أخذه مديرو المبيعات في عصرنا عن البقالين، وقد ضمنت مكانها في الحكايات التي لم يمل الناس من روايتها عن أنها باعت برطمانات الرنجة ذات الثمانية عشر عامًا إلى سويدي اعتاد تناول الأسماك الفاسدة. وكانت تعدُّها مسألة كرامة أن تعوض مخزون أي بضاعة تفرغ من متجرها. وحتى عندما أصبح من الواضح أن "آوسفيني" محكوم عليها بالموت، وأن آخر طفل قُدِّر له أن يولد بدأ يطرق أبواب المراهقة، إلا إنها استمرت ترفض التخلص من كراتين الحفاضات في مخزنها. وقد جاء ذلك اليوم أيضًا عندما وقف الناس في متجرها ينتظرون حتى ينتهي بقية الزبائن من ثرثرتهم ويتركوهم وحدهم، وبعدها سألوها: "روزيتا"، تلك الحفاضات التي تبيعينها هنا طوال تلك السنوات، هل بقي منها شيء في مخزنك؟" ولا شك في أن مقاس الحفاضات كان صغيرًا جدًا. ولكنك إذا قمت بسحب السروال الداخلي فوقها، فعندئذ تثبت الحفاضة في مكانها بما يكفي لأن ينتفع بها كبار السن.

***

وثقت "روزيتا" بعقلها أكثر من الآلات الحاسبة، التي اعتبرتها بطيئة للغاية ولا تثق بها كونها سببًا لخمول العقل. لا يستغرق الأمر منها وقتًا طويلًا على الإطلاق قبل أن تذكر للزبون المبلغ الذي عليه دفعه، وإذا قوبل ما قالته بنظرة عدم اقتناع واستهتار من زبون لا يصدِّق قدرتها على تجميع كل تلك الأرقام بهذه السرعة، فإنها تبادر بإعادة تجميع الأسعار بالقلم على هامش صحيفة قديمة، وبصوت عالٍ كدليل مفحم قاطع. ولم تكن مولعة بالتعامل بالبطاقات المصرفية، فهي لا تعترف بمال لا يكون في يدك. طالما أنك ترى السلعة بعينيك فعليك أن تعطيني مالًا أراه بعيني.. هكذا.. بكل بساطة.

ولكن، بما أن العالم قد تطور في اتجاه يتطلب حفظ مجموعة من الأرقام قبل أن يتمكن الناس من استخراج أموالهم من ثقب في ماكينة مُثبتة بالحائط، ولأن أقرب ماكينة من هذا القبيل كانت على بعد اثني عشر ميلًا (رحلة كان يقوم بها كبار السن بوتيرة تقل مع مرور الأيام، وعندما يفعلون ذلك فغالبًا ما كانوا يعودون بخفي حنين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأنهم يجدون الماكينات فارغة تمامًا)، فلم تجد "روزيتا" أمامها سوى أن تقبل طلب الزبون تأجيل الدفع.

تدوّن اسم المدين والمبلغ في دفاترها التي تخصصها لهذا الغرض. وقد يكون ذلك غير ضروري، كونها تمتلك ذاكرة فيل، غير أن "كورنيل" نجح في التملص منها طويلًا على مدار العشرين عامًا الماضية من حياته بحجة نفاد أموال ماكينات الصرف الآلية، أو أن الحافلة المتجهة إلى المدينة لم تحضر، أو أن الماكينة سحبت بطاقته، ولكنه كان في كل مرة يقسم لها أنها سيدفع في الغد مهما حدث، بل وأقسم بروح والدته وبرأس كلبه. لم تتجاوز طلباته الخبز والتبغ والبيرة، ورغم أنها كانت تعلم يقينًا أن "كورنيل" لن يسدد ما عليه أبدًا، استمرت في بيع كل ما يطلب بالدين. كان "كورنيل" حالةً ميؤوسًا منها، وارتاحت هي لفكرة أنها تعامله على هذا النحو من باب التصدق وفعل الخير.

ذات ثلاثاء رتيب بلا أحداث، تسكع "كورنيل" داخل متجرها، وترك الجميع يتخطاه في صف الدفع، مشجعًا: "تقدّم، لست على عجلة من أمري". وراقبته "روزيتا" وهي تقول لنفسها: "الشيطان المسكين.. وصل إلى تلك المرحلة ثانيةً، وما هي إلا دقيقة حتى يطلب عبوة حفاضات، ويعد بالسداد في أقرب وقت". ولما لم يتبقَ أحدٌ في المتجر سواه، مد يده إلى جيبه الخلفي حيث محفظته، التي أخذت مع الوقت شكل ردفه، وكادت تتمزق مهترئة مثل كتاب مقدس قديم، وهو يقول لها:

- "روزيتا"، يمكنك شطب حسابي في دفترك.. لقد كنتُ في البنك.

ما أدهشها حقًا هو أنه عندما كانت تجمّع حسابه من الدفاتر التي تراكمت على مدار عشرين عامًا كادت تقسم أن "كورنيل" كان يحتفظ بدوره بتفاصيل حسابه في بيته. لقد كان المبلغ الذي وضعه على طاولتها مساويًا لحسابها بالتمام والكمال. هل غيّر "كورنيل" ملاءات فراشه لأول مرة منذ سنوات فوجد مدخراته، مثلًا؟ هل سقط ميراث بين يديه بغتة، أم أنه استثمر ماله القليل في اليانصيب، أم أنه كان أحد الأغنياء الذين عاشوا حياة فقير لأنهم مرعوبون من اضطرارهم يومًا ما إلى طلب الكثير من المشروبات في البار لروادها على حسابه؟ هذه أسئلة لن تطرحها عليه أبدًا.

هي مهذبة للغاية. ولكن الآن بعد أن أصبح المال على طاولتها، أدركت أن "كورنيل" منحها ما اعتبرته معاش آخر العمر. يمكنها الآن أن تغلق المتجر وترتاح حتى آخر أيامها.

***

بدا مصيرًا لا رجعة فيه، ولم يتصور أحدٌ خلاف ذلك؛ سرعان ما ستنضم "آوسفيني" إلى قائمة القرى التي ضحى بها حراك التاريخ.. "بيرجيمونت".. "شارنيه".. "شريسن".. "سيدرونس".. "فرانفيس".. ذات يوم، استقر شخص ما هنا، صياد أسماك، أو صياد حيوانات، وعندما لحق به الآخرون، كان عليهم التفكير في اسم للقرية، وذلك لأنه لا أحد يأتي من مكان بلا اسم، والمكان الذي لا يمكن تسميته لن يكون بطلًا لأي حكاية. ولا بد أن أحدهم اقترح الاسم "آوسفيني"، وبعد أن أعجبهم وقع الاسم على آذانهم، قرروا اعتماده. سوف يكون للاسم مستقبل، يثير الخيال عندما يظهر على مظروف.. مكتوب بخط فتاة. ولم تكن الطيور بحاجة إلى أسماء؛ فهي تعود في كل عام إلى أعشاشها الصيفية مرتحلة من الجنوب، وسوف تواصل تلك الرحلة دون انقطاع. لكن الإنسان هجر هذا المكان، وراح إلى حيث يتجمع السكان في بقعة أخرى، حيث المشهد الوحيد هو أفق المدينة.

Telegram:@mbooks90

أما أولئك الذين بقوا، أولئك الأربعون، فقد بقوا. ما لم يكن لديهم أطفال، لأنهم رأوا تلك المأساة التي حققها "فينسنت"، "مسيو لو بريزيدون"، حتى امتزجت تمامًا بالقرية وأحاقت بها من كل جانب. لكن في يوم من الأيام، قرر أولاده أنه أكبر سنًا من أن يظل بمفرده. رجل عملاق، كبير طويل عريض. كان لدى "فينسنت" عنقٌ شديد الانتفاخ، حتى أشاعوا أنه يبتلع فيه أي ضفدع يضايقه بنقيقه. رجل آمن بأن تناول خمس شرائح لحم في اليوم سيجعله خالدًا، حتى لو كانت السيجارة لا تفارق فمه. إلا أن كليتيه تغلبتا عليه وسببتا له المتاعب. قالت له الطبيبة "لونيت":

- أنت لا تشرب بما فيه الكفاية! أقصد الماء بالطبع!

وهو بالفعل لم يكن يشرب أي مياه، واعتقد أن الماء للأبقار فقط. لحظتها، تذكر أن الطبيبة "لونيت" طبيبة حيوانات. وأقسم ألا يشرب الماء أبدًا، إلا في حال كان شرب

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الماء يساوي استمرار حياته. لكن أولاده أصروا على أن ينتقل إلى المدينة، إلى إحدى دور الرعاية تلك حيث تتولى الممرضات رعاية المسنين. كانت الراحة تنتظره، لكن عليه في المقابل أن ينسى طلب قطعة إضافية من اللحم. هنا كان هو الأقوى دائمًا، كان "هرقل" الذي يلجأ إليه الجميع. حزن أهل القرية لرؤيته، وهو الذي بقي حتى اليوم ملء الأبصار، وهو ضعيف يضعه أولاده في السيارة. انهال عليهم بوابل من السباب، وهددهم بالموت غدًا حتى تعذبهم ضمائرهم. قاد سيارته أسفل التل، وهو ينظر إلى سماء الشتاء باهتة الزرقة، التي طالما أحبها، والتي لن يراها مجددًا إلا من خلال نوافذ ينبغي أن تكون نظيفة للغاية.

الآن تبقَّى في القرية تسعة وثلاثون.. وهم من بقوا. وهم من استمروا في اللعب بالكرات الحديدية وشرب زجاجات "الباستيس" تحت الشجرة وارفة الظل، وهم من استمروا يغنون أغاني "أزنافور".. التي استحالت رتيبة.. شيئًا فشيئًا.

الفصل الرابع عشر

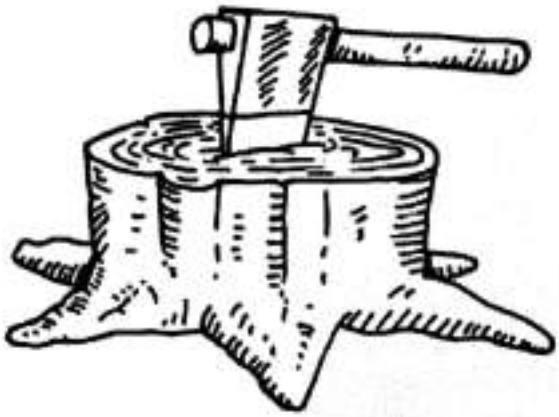

"اغفري لي صراحتي.. ولكن زوجك كان ليسر مهمتي كثيرًا لو أنه شنق نفسه من غصن شجرة تنوب".

أجل.. تلك الغابة.. كان ذلك في نهاية موسم تعشيش الطيور، وهي الفترة التي يتخلى فيها قاطعو الأشجار عن عملهم، ويبتعدون عن مناطق الطير. تلك هي الطريقة الوحيدة التي تفسح المجال للسناجب والطيور الجارحة حتى تؤدي مهمتها، والطريقة الوحيدة التي تعود بها الحياة إلى أوراق الشجر والنباتات. الأشجار بحاجة إلى الحيوانات بقدر احتياج الحيوانات إلى الأشجار. أما في أوائل شهر يوليو، فيعد الناس العدة ويدخلون الغابة للمرة الأولى منذ شهر مارس، ليتفقدوا الأضرار التي سببتها عواصف أواخر الربيع، وخشب الزان الذي ضربته الصواعق وتلك الأماكن التي تتغذى فيها الغزلان على البراعم اليانعة. أولئك الذين باعوا أخشابهم وهي ما زالت على جذوعها أزالوا أجزاءً من اللحاء أو استخدموا الطلاء والفرشاة لتمييز ما هو معروض للبيع من بينها.

تغير كثيرٌ هنا، وإذا كنت ممن يهتمون بمثل هذه المواضيع، فسوف يتطوع العمال بحكي القصة بإسهاب على طريقتهم بين أنفاس دخان التبغ. أيام كانت تجارة الأخشاب مربحة. أيام كان الناس ينقبون أحشاء الأرض لاستخراج الفحم. لم يتمكنوا

أبدًا من مواكبة حجم الطلب، لأن الشركات كانت تحفر أعمق وأعمق تحت الأرض، وكانت أعمدة المناجم بحاجة إلى دعم أقوى وأقوى بخشب جيد أصبح يتناقص بوتيرة أسرع، ولا يمكنك زرع أشجاره بقدر كافٍ في المدة المطلوبة. ثروة حقيقية يا سيد، مضمونة، ففي تلك الأيام كانت الغابة مصدر دخل وافر. ولكن المناجم أغلقت فجأة، واستحالت قبورًا صامتة لفدادين وفدادين من الغابات التي ضحوا بها مع عمال إيطاليين لم يعثروا لهم على أثر. شباب، مصممون على العودة يومًا ما إلى "ليتومانوبيلو" أو أي كان أسماء بلداتهم الأم التي يحنون إليها، وحيث كانوا يأخذون أجمل الفتيات في أحضانهم تحت البرج. لقد دُفنوا أحياء ذات صباح كارثي. آه.. ذلك منذ زمن بعيد.. حتى أولئك الذين حزنوا عليهم ماتوا منذ فترة طويلة.

توابيت.. هذا ما أصبحت عليه الأشجار في الأيام اللاحقة. توابيت لأولئك الذين تمكّنوا يومًا من الإطاحة بها وتحويلها إلى ألواح وقطع. أرخص الأنواع، من أبسط الألواح، وهذا لأن الكوارث لا تحيق إلا بالبسطاء، كما كتبت الصحف في ذلك الوقت. ولكن بعد ذلك تنتهي القصة. زُدمت الحفر، واختفى التجار، ومعهم اختفى الطلب على الخشب. إن التحول إلى أنواع أخرى من الخشب، لصناعة الأثاث على سبيل المثال، لا يحدث بين عشية وضحاها. الشجرة لا تجذب انتباه تاجر قبل أن يبلغ عمرها ثلاثين عامًا، وإذا كنت تريد أن تصنع منها طاولة، فلا يزال أمامك وقتٌ طويلٌ.

علاوة على ذلك، فلم يكن إعلان الحرب على الأشجار فعليًا قد شاع بعد، وربما تجد في كلامي هذا تناقضًا، ولكن الحرب الفعلية اندلعت عندما ملأ البلاستيك والألومنيوم المنازل بغتة. تراجع الطلب على الخشب، وتهاوت القيمة الاقتصادية للغابات حتى باتت شبه معدومة، ولم يعد لدى معظم مالكيها خيار سوى اللجوء إلى سعي آخر لكسب لقمة العيش. دون أن ننسى أنهم في هذه الأثناء توغلوا في أعماق غابات "الأمازون"، وقاموا بلا خجل بإزالة الأشجار التي عانقت السماء طيلة قرون بمعدل مساحة عشرات ملاعب كرة القدم في الساعة. وفي الدقيقة. والورق.. الذي أعادوا تدويره. لم يبقَ أحدٌ يعمل في الغابات سوى الحمقى، والأنانيين الذين كان لديهم من المال ما يتيح لهم استثماره في عزلة يحتاجون إليها بعد أن امتصوا دم

البشر إلى حد الكراهية. وبخلاف ذلك.. لا أحد.

ولكن تجارة الحطب استمرت.. فما يزال هناك مَن يوفر الحطب لعيد الميلاد.. وعيد الميلاد للحطب.

***

رافقت "مدام فيرونا" المحترم ذا البدلة في الغابة وهي تفكر في الكاتدرائيات. كانت مقارنة تتعلق بـ"مسيو بوتر"، الذي أدرك، عندما وجد المنافسة في النمو محتدمة بين الأشجار، أنه لن يرى ثمار عمله. تحتاج الغابات لتتعافى إلى أشجار قديمة وقورة؛ تمامًا كما هي العلاقة بين الآباء وصغارهم، لتكون لهم القدوة ولتشاركهم دائرة الضوء. أما كل شجرة معيوبة فلا بد من إزالتها، وذلك لأن أي نمو ملتوٍ عقابه المنشار. المستقبل للأشجار المستقيمة ذات الأغصان المتناغمة وتيجان الأزهار العميقة الجميلة. تفضّلها الحيوانات والطيور، ويحب نقار الخشب أن يحفر بيته في جذعها، فالغابة بدون أشجار عملاقة غابة ميتة. ولكن لم يسبق أن عاش أي إنسان أقدم على زرع شتلات غابة حتى اليوم الذي يتمتع فيه بما قدّمه من مساعدة للطبيعة. الأمر يتطلب روح باني كاتدرائية، ولم يكن هذا من قبيل المبالغة؛ إنها القدرة على قبول أن تبدأ في تشييد ما لن يقدر لك أن تشهد اكتماله. واعلم أن أي بادرة ولو بسيطة، مثل أن تخطو على أوراق شجر متعفنة، أو أن تقطف فطر "شانتيريل"، كفيلة بأن تغير مجرى المائتي عامًا التالية. من شأن هذا أن يواسي "مدام فيرونا"؛ أن تتأمل الأشجار التي غرسها زوجها وهي تصبو في هدوء إلى الشمس. وربما كان في ذلك عزاؤه هو أيضًا، في الثواني التي سبقت انتحاره، أن يعلم أنه في غضون قرن أو قرنين سوف تتزاوج الحيوانات هنا وتعشش الطيور في شجرة كانت بين يديه شتلة. يقال إن الغابات تموت بسلام.. وهذا لأنها صنعت حياةً أكبر منها.

***

- هذه شجرة نفضية.

قال الرجل، الذي يصنع الكمان.. يسمونه "اللوتيير".

- اعلمي أن الكمان والتشيلو يصنعان من خشب الصنوبريات. وأفضلها خشب التنوب.

تلك معلومة تعرفها "مدام فيرونا" جيدًا، ولم تكن بحاجة إلى سماع محاضرة حولها. خشب شجرة التنوب النرويجية الأنسب لصنع جسم الآلة، وهم يقطعونها في منطقة "الكاربات" عند نهاية الشتاء، وقت توقف تدفق العصارة بداخلها. أما خشب القيقب فهو الأنسب لرأس الكمان المعقوف، والأبنوس لمشابك الأوتار، والخشب البرازيلي لقوس الكمان. ولكنها حسمت أمرها.. فهي تريد أن تصنع آلة التشيلو بالكامل من خشب الشجرة التي شنق زوجها نفسه عليها.

- لا بأس، ولكن اعلمي أن نشاز نغمات آلتك سيكون نتيجة قرارك هذا.

كانت هناك عقبة أخرى. للغابة الخضراء عقلٌ يخصها، وهو ما يعلمه كل من يعمل في الأخشاب. يجوب من ينحتون أعمالًا فنية من الخشب أحواض بناء السفن بحثًا عن القوارب الخردة ذات الصواري المنهكة. وهذا لأن الخشب لا يستسلم بسهولة، حتى لو كان ذلك مقابل نحت وجه جميل؛ سوف يتشقق ويتشقق ويتشقق.. إذا لم يكن قد تُرك لحاله بضع سنوات حتى ينضج على مهل. فإذا كانت آلة التشيلو ستُصنع من هذه الشجرة، فسيكون من الحكمة أن تستدعي "مدام فيرونا" كل جنود الصبر لديها لتقنعهم بترك خشب الشجرة لحاله في مكان جاف لعشرين عامًا أولًا.

- في هذه الحالة، عليّ أن أعيش لعشرين عامًا أخرى.. إن كان ولا بد.

أومأ صانع التشيلو.. عفوًا.. "اللوتيير"، برأسه متفهمًا. لقد تعاون مع أعظم الموهوبين، ولعدة قرون مقبلة سيستمع الناس إلى صوت آلاته عبر جميع أنواع التسجيلات، وقد رفض فائزون بمسابقات دولية العزف على تشيلو لم يصنع في ورشته، لذلك يحدد أسعار صنيعه وفق هذه الحقائق. لقد لبّى أشد الطلبات إلحاحًا، ولكن أن يصنع تشيلو من شجرة نفضية انتحر عليها عاشق.. تلك تجربة لم يخضها من قبل. عشرون عامًا. مسح وجهه، وكأنه يتحسس أثر السنين.

- وقتذاك سيكون ابني هو من يصنع لك هذا التشيلو. بحلول ذلك الوقت سيكون قد أتقن الحرفة بدرجة أفضل مني.. أضمن لك ذلك.

امرأة ورجل بين الأشجار، يتحدثان في زمن هو بالنسبة للأشجار مجرد برهة.. عشرون عامًا فحسب.

***

اتفقت منذ فترة طويلة مع "تشارلو" على قطع هذه الشجرة. وهذا ببساطة لأنه سيتعين عليها قطع شوط طويل للعثور على حطّاب أفضل منه. لقد فاز ذات مرة، بوصفه بطلًا وطنيًا، بحق المشاركة في بطولة العالم لتقطيع الأخشاب، ورأى كثيرون أنه الرجل الذي كسر الهيمنة الطويلة للكنديين ودول شمال أوروبا. لم يقطع أحدٌ شجرة بدقة مثله. تسقط تمامًا حيث يريد، لا شبر واحد على اليسار ولا بوصة إلى اليمين. ولكن في ذلك العام، كان هناك نزاع حول لقب أفضل حطاب في العالم في عرين الأسد، مدينة "وينيبيج" الكندية، حيث يتجمد المخاط قبل أن يسيل من أنوف الحطابين في الشتاء، وإن كان هناك من شيئين لن ينتصر عليهما "تشارلو" أبدًا طوال حياته؛ فهما خوفه من الطيران وعدم ثقته في طعام الأجانب. جسده أشبه بجذع شجرة بتول عفية، يميزه فخذان متضخمتان بالكاد يحيط بهما السروال، تئز ركبتاه تحت وطأة ما تتحمله، وتنتهي ساقاه بقدمين في حذاء ثقيل لا يعيش لأكثر من موسم واحد. ولكنه ألطف روح في "آوسفيني"، ويتسلى طويلًا بسب أي شخص يسوقه القدر إليه، وهي عادة لا يتخلى عنها في أي يوم، حتى ينعش قلبه ويخفف عن روحه ويتمرن على مفرداته اليومية في الوقت نفسه. الحطّاب شخص صامت أغلب الوقت.. وغير معتاد على صحبة البشر. ولما تمر أمامه جميلة فإنه لا يطلق ذلك الصفير المنغوم.. البتة.. إنه يطلق أصواتًا أقرب لحفيف أوراق الشجر وخشخشتها. يقف الآن محدقًا في الشجرة، مدركًا أن "مسيو بوتر" انتحر عندها، سائلًا "مدام فيرونا" عما إذا كانت جادة فيما تريد.

عندئذ، التقط منشاره.

***

عند عودته، يكون الصمت أشد كثافةً مما كان عليه من قبل. ولما تقبل الشجرة هزيمتها، وتصرخ وهي تتهاوى، فإن الحياة كلها عندئذ تفر وتتلاشى. تسمع زقزقات.. نعيق.. أغصان تتصدع.. تمطر ريشًا وزغبًا.. وتتقافز الأرانب نحو ملاجئها تحت الأرض. ورغم كل شيء، فإن التلامس الفعلي للعملاقة بالأرض يكون في هدوء شديد؛ رغم أن عموم الناس يتوقعون صخبًا لحظتها. أما الصخب فيكون في بقية أرجاء الغابة. وبمجرد أن تقدّر المخلوقات حجم الضرر الذي وقع، حتى يعود الصمت المقيم. وتتجه العيون والأوراق إلى بقعة الضوء الجديدة التي صارت تلتمع زاهيةً في المكان الذي كانت الشجرة تغطيه. لقد تحرر ذلك المكان، في انتظار أن يشغله شيء ما أو شخص ما. إن حياة الأشجار مثل حياة البشر.

بطيئة، مثل شاحنة نقل الأخشاب، تلك التي تحمل جذع شجرة وتسير به في الشوارع، حيث ينبغي للناس النظر إليها باحترام، بينما تمر عليهم بهدوء، دون أن تطلق بوق التنبيه. انسدل ستار حزن على "آوسفيني" ظهيرة ذلك اليوم عندما رأى سكانها تلك الشجرة بالذات تُقطع، كما لو أن "مسيو بوتر" دُفن مجددًا. لم يرسموا علامات صليب ولم يخلعوا قبعاتهم، ولكن الأفكار طافت في رؤوسهم قاتمة كئيبة مع غصة اجتاحت روحهم. ولكن، هناك مكانًا ما تحرر: فمع قطع تلك الشجرة، كانت "مدام فيرونا" تمحو جزءًا لا يُستهان به من ماضيها، وهو ما بعث بهجة خفية في نفس كل عازب. لكن تلك الشجرة كانت ستعود، في صورة آلة تشيلو، فلقد حكى "تشارلو" الحكاية للكل. وليس هناك من عاشق حتى يمهد لهم الطريق إليها. ولم يكن هناك من تذكار كي يسعوا إلى محوه. لحظتها، تمتم أحدهم بقسوة: "إن هي غفلت عن ذلك، فسوف تنسى فائدة ما بين ساقيها". ولم يخطر ببال أي منهم أنه ما من شيء آخر يمكن أن يجعل "مدام فيرونا" أشد سعادة من أن تنسى بالفعل فائدة ما بين ساقيها.

الفصل الخامس عشر

يوبخها المتطفلون ويخبرونها أنها ارتاحت إلى استقرارها في قصيدتها الفاسدة، حيث يتجاوز الحب الزمان والمكان وما هو أكبر نطاقًا منهما، وحيث انفصل الوجود عن كل القوانين التي عصفت بعقول "نيوتن" وأمثاله، ليوحي بأن الحب ليس جزءًا من الوجود. ومع ذلك، فهي لا تستطيع تحمُّل فكرة رحيل حبيبها. ورغم أن أفكارها كانت بعيدة كل البعد عن أفكار الفيزيائيين التي استكشفت جميع ما استغلق على العقل، لأنها تريد أن تبقى بعيدة كل البعد عن المنطق، فإن أفكارها تلك كانت تبدأ لتنتهي عند "مسيو بوتر"، الذي رافقها أينما ذهبت.

عندما تطل من النافذة على الوادي، فإنها تطل معه. وعندما تأكل فإنها تأكل معه. لذلك السبب لم تكن تلح على من يزورها كي يبقى لتناول العشاء، مرتاحةً إلى حميمية فكرة تناول الطعام بمفردها مع زوجها. وحدهما، وقنينة شراب سرعان ما تفرغ. تدرك أنها تتحدث إليه بصوت عالٍ في بعض الأحيان أثناء ذلك؛ ولم يكن الأمر

كما لو أن الكلمات تسللت لتواجهها بألم فقدها. لم يكن هذا بجنون، ولم يكتمل بينهما أي حوار. تقول ما بين حين وآخر: "حبيبي، سوف يفيدني جدًا أن آخذ حمامًا دافئًا". أو: "أتذكر، يا عزيزي، تلميذي "بوسارت"؟ أصبح عازفًا ماهرًا للبيانو اليوم". ومجددًا، لم تتوقع منه أن يبادر ليحضِّر لها الحمام، أو أن يسليها بمحاكاة العزف على البيانو بأصابع تداعب الهواء. أحبت التحدث بالنبرة التي اعتادت استخدامها عند التحدث إليه، وهي نبرة اعتادتها خلال وقتهما معًا، ولم تتحدث بها مع أي شخص آخر، والآن تفتقدها في صوتها. مشتاقة إليه، بينما تفتقد ما كانت عليه معه؛ لذلك تجد في كل محاولة لاستحضار سماتها نوعًا من الاقتراب منه.

ترتدي ملابسه كلما حنّت إلى حضنه. وأحبها إلى نفسها تلك البلوفرات الخفيفة ذات الرقبة، والتي كان يرتديها بعد أن بدأ يشعر بالحرج من الندبة التي خلفتها إزالة شامة على رقبته. بالطبع، شعرت وكأنها تجعل موته حقيقيًا في أول مرة وضعت فيها ملابسه في الغسالة، وهو أمر أجلته لأطول فترة ممكنة، لتكتشف بسعادة أن رائحته قد بقيت في الملابس رغم معركتها مع مسحوق الغسيل.

من بين كل الأشياء التي بقت ممكنة، كان ذلك أفضلها: أن تجلس في مقعده الوثير لتقرأ كتابًا بينما تتشمم ملابسه. وما هي إلا خمس صفحات حتى تتساءل مندهشة عما قرأته للتو، لكنها لا تفكر أبدًا في العودة لقراءة ما ذهل عنه عقلها من صفحات.

لم تكن تحب القراءة بقدر ما أحبت فعل القراءة نفسه، والجلوس مرتديةً ملابسه، كما لو كانت تجلس بداخله، وهي تعلم أن يومًا آخر قد أصبح جزءًا من الماضي، ولذلك كانت تستمتع بصحبته طوال وقت قصير يمكن أن يقضيه الناس في خمول تام.

اتفق كل رجل من رجال "آوسفيني"، ممن حضروا لأداء مهام غريبة أوكلتها إليهم، على شعورهم بأن "مسيو بوتر" ما يزال موجودًا في ذلك المنزل! وسوف ينتهز كتّاب روايات الإثارة والغموض، الذين يلعبون على أوتار حاجة الإنسان للخوف، هذه الحقيقة فرصةً لنسج خيالات الأشباح والأوهام والأطياف. وسوف يعتصرون مهاراتهم في الكتابة لآخر قطرة في محاولة لشرح أمر يكمن تفسيره الوحيد في

عدم تفسيره. كان رجال "أوسفيني" سعداء للغاية بالحضور، واستغلال فرصة ترميم سقف مثقوب أو تغيير مصباح مهشم أو أي مهمة أخرى كذريعة لتجربة التواصل معها، من خلال التحدث تلميحًا عن صعوبة الوحدة ومرارة العزلة. يذهبون مفعمين بتصميم حازم، ولكن بمجرد أن يصلوا إلى المنزل حتى يتملكهم الخوف لأنهم، ورغم محدودية خبراتهم مع الحب، يرون ما يكفي لإقناعهم بأن "مدام فيرونا" ما تزال تعيش معه.

***

هي ليالٍ، قاتمة طويلة.. جدًا، تلك التي وقفت في وجه أوهامها. المنزل يتداعى فوق أساساته، وهي تدرك أنها مسألة وقت قبل أن يتوجب عليها تحديد أي ركن تبدأ بترميمه أولًا.. هو أو هي. تنصت وهي في الفراش إلى أشياء تستسلم للريح.. بلاط السقف.. دلو الماء الذي يهيم على وجهه في أنحاء الحديقة. ولكن حتى عندما لا تهب الرياح، فإن أركان المنزل تتصايح بصرير مسموع، كما لو كانت تفعل ذلك بإرادتها، مثل مَن يطقطق مفاصله طلبًا للاسترخاء. وإن تصادف أن كان لديها كلبٌ ضالٌ في المنزل، فإنها تتمنى في لحظات كهذه من كل قلبها أن يعتبر المنزل منزله وأن تواتيه شجاعة النباح أو العواء حتى يطرد الصمت عن محيطه الجديد. وفي الفترات التي لم تكن فيها تأوي أي كلاب، أدركت أنها كانت تعتمد على "مسيو بوتر"، الذي كان سينهض من الفراش وينزل إلى الطابق السفلي متوتزًا للاطمئنان والتأكد من عدم وجود لصوص، رغم أنه متيقن من ذلك مسبقًا.. وهي لم تكن شجاعة بما يكفي لتنزل بنفسها. وماذا لو فعلت ووجدت نفسها وجهًا لوجه مع لص، ما الذي ستؤول إليه الأمور؟ في لحظات كهذه، تضايقها أفكارها حول وجود "مسيو بوتر" حولها. لقد مات. مات بمعنى مات. كان ميتًا وقت أن استقرت العواصف الرعدية فوق "أوسفيني". لم يتضاءل عجزها في مواجهة غضب الطبيعة بغيابه، ولم تكن هناك أحضان قادرة على تهدئة روعها، ولكنهما اعتادا حين كان على قيد الحياة النزول إلى أسفل التل ليتململا كلما هبت عاصفة رعدية ليلًا. يحصيان تلك الثواني العجيبة بين البرق والرعد كما لو أن ذلك كفيل بإبعاد الخطر عنهما. بدونه لم تجد في نفسها شجاعة النزول إلى أسفل التل، حتى بصحبة كلابها. الكلاب تزحف خائفة نحو أصغر

أركان المنزل، لتدفن رؤوسها بين أقدامها وفقًا لفلسفة بديهية، يرغمنا الإنصاف على ألا ننسبها إلى النعام وحده.

ذكّرتها العواصف بأنها بنت الشمال. اعتاد من نشأ في هذه التلال على صخبها الذي يأتي مرات قليلة خلال السنة حتى يمنح أولئك الذين خاضوا الحرب كوابيسهم. يعرفون بقدوم العاصفة الكبيرة من الصمت الذي يسبقها، فتهدأ الطيور وتلتحق بركب الصمت البدائي. تراها وهي تقترب من بعيد، والسماء تقذف ألوانًا لم يكن لأي طفل في العالم أن يصنعها بعلبة أقلام التلوين. اقتراب هادر. وأخيرًا، يقبع الغمام فوق الرؤوس لساعات متتالية، وتصبح القرية ألعوبة بين يدي إله مسّه الجنون. تزأر السماوات في وجه كل الأشياء، التي كانت وتلك التي ستكون. لا يهدأ روعها، مهما كان عدد قطع ملابس زوجها الثقيلة التي ارتدتها. وخلال العواصف العاتية، تفكر أحيانًا، للحظات، في البحث عن رفقة آخر، وأن تطرق بابه لتتوسل إليه: "تحدث إليّ، واشرب معي، حتى يمر هذا الغضب". ولكنها كانت تخشى سوء الظن، وسخرية الرجال منها.. "اعتبري البرق فلاشات كاميرا.. وابتسمي له!". ولكنها تعلم أن الرجل القوي هو من يترك نفسه للخوف من الطبيعة، طالما أنه لن يعترف بذلك علنًا.

***

في قرية تتزايد عزلتها، اختارت العيش في أكثر البيوت عزلة. ويعلم أهل القرية أنه بيت لم يسكنه سوى الأغراب، أشخاص من بقاع أخرى، جاءوا إلى هنا برؤية رومانسية وأحلام الوحدة والعزلة، ولكنهم دفعوا ثمن ذلك لاحقًا من عقولهم. ويتذكر هؤلاء القرويون حالقًا، ربما هو غجري، أطلق النار على الجدران والسقوف بينما كان يرقص في الغرف بعد أن ذهبت الوحدة بعقله. ويتذكرون امرأة شربت خمرًا حتى أجهضت، وألقت بزجاجاتها الفارغة نحو الأشجار، وأخيرًا نقلتها الإسعاف إلى حيث تهيم على وجهها في رداء المجاذيب بقية حياتها وإلى أن يأذن الرب بقبولها وابتسامتها الحمقاء في رحابه. وهكذا دواليك.. لم تدم السعادة طويلًا أبدًا في ذاك المنزل. من الأفضل لـ"مدام فيرونا" أن تتخلى عن تلها وترحل. ليس الشعور بالوحدة هو الذي سيذهب عقلها، فهي لم تعانِ من ذلك على الإطلاق. سيذهب عقلها ضحية

اختيارها العزلة بإرادتها. لأنها ظنت أنها لن تحظى بخلوة مع توأم روحها إلا باستمرار وحدتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السادس عشر

من بين جميع الأسباب التي تدفع الفتيات، صغارًا وكبارًا، إلى المباعدة بين سيقانها بكل حب وإبداع، حظي العزف على التشيلو بأقل قدر من اهتمامهن، ولكن في حكايتنا هذه تعويض عن هذا النقص اللافت.

***

يجب أن تدوم الحياة ما دام الحب وليس أطول، وقد اعترت قشعريرة جسد "مدام فيرونا" عندما أبلغوها أنهم قد انتهوا من وضع الطبقة الثانية من الورنيش على آلتها، أي أن عشرين عامًا قد مرت بالفعل على قطع الشجرة. كانت أبطأ سنوات وجودها، أسيرة الإرهاق والكلاب الضالة التي وجدت سيدة جديدة تحرسها. ولكن السنوات مرت، لتنضم إلى شذرات الماضي، ومع الوقت تستقر في سماد الذاكرة.

لقد تقدمت في السن، من دون جهد، تمامًا مثل كتاب تقادم به الزمن وهو باقٍ على الرف. كبيرة في السن بكل تأكيد؛ مكتفية من كل شيء منذ فترة طويلة، فأدركت أنها يمكن أن تكبر أكثر. يمكن إضافة عشرين عامًا أخرى إلى حياتها بسهولة، أو ثلاثين

عامًا، أو أربعين عامًا إذا لم تكن ربة الحظ رحيمة بها. هكذا هي الطبيعة الأم؛ تختار مخلوقات عشوائيًا من هنا وهناك لتشجع الشاب على العيش حياةً أشد طيشًا في تحدٍ لتدهور العمر، وكانت "مدام فيرونا" مناسبة أكثر فأكثر للقيام بهذا الدور.

ما زالت قادرة على صعود التل ونزوله، وستكون قادرة على ذلك لفترة. ولكنها صارت تقضي وقتًا أطول في الصعود حيث تتوقف في كثير من الأحيان في الطريق، وتريح أكياسها على الأرض بينما تلهث لالتقاط أنفاسها. وسيكون كل صعود لاحق أبطأ من السابق؛ لقد تم فتح الحساب، وأصبح الاتجاه مؤكدًا. وأولئك الذين ما زالوا يتحدثون بلا توقف كان على الآخرين الذين يستمعون إليهم أن يشيروا إليهم أنهم قد بدأوا يكررون أنفسهم، وأن ينبهوا من حولهم أن هؤلاء ينسون ما قالوه للتو. ولكن لم يكن لدى "مدام فيرونا" سوى نفسها، وعندما تنتبه تسكت، وتترك الجمل المتكررة دون أن تقولها.

لم تكن المرآة هي التي أهانتها بالحقيقة أو ذلك الشعر الذي وجدته على غطاء وسادتها في الصباح، ولكنها أحلامها التي عجزت، رغم قدرتها على تحويل الواقع إلى وهم تقبل أن تصدقه، عن أن تجعل "مسيو بوتر" يكبر معها. فإن حدث وحلمت به، ولم يكن هذا بأمر تتطلع إليه، فقد كانت تراه في هيئة الرجل الذي كانت تعرفه. شاب. وتلك المرأة التي يحضنها بين ذراعيه الشابتين في أحلامها كانت هي.. العجوز. وكم كرهت تلك الرؤيا. ولكن العقل الباطن لا يأبه برأيها ولا يوقظها أبدًا قبل أن يكتمل الحلم. وكم كرهت عدم منطقية ذلك. الحب واحد والحب أكثر من واحد. وكان ظنها أن من حقها بأن تحلم بمن عشقته وهو يكبر معها بمرور الزمن.

أجل، لقد كانت صدمة عندما أخبرها صانع التشيلو أنها سوف تتسلم الآلة في منزلها في الغد. لم يكن مرور الزمن هو ما أرعبها بقدر ما كانت حقيقة أنها تمكنت من العيش بدونه طوال عشرين عامًا. كانت الكلاب دائمًا هي التي تبادر بعرض نفسها عليها، كما لو أن الكلاب تود أن تمنحها متعة العناية بشخص ما أو شيء ما، وليس بدافع تلبية أي احتياجات خاصة بها. ولو أن "مدام فيرونا" صدقت مع نفسها، لاعترفت بأنها استغلت تدفق الكلاب المستمر هذا بوصفه دافعًا للبقاء بقيد الحياة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما لو كان عذرها الوحيد المقبول. لقد كانت تعتبره خيانة لارتباط كان أقدس من الزواج.. وهو ما لم يكن أحدٌ ليلومها عليها.

***

جاء التشيلو.. بهيئته غير الجذابة التي توقعتها. براعة الحرفي حاضرة بقوة فيه؛ عبقري أنتج معجزة صغيرة من خامات رديئة فرضتها عليه. ولكن بالمقارنة مع التشيلو المصنوع من أنواع الخشب المناسبة، كانت هذه الآلة شنيعة، أشعرتها بالذنب تجاه صانعها، الذي عمل عليها لسنوات مع علمه أن هذه الآلة إهانة لموهبته. وكان بالطبع قد حذرها، وثبت أن التحذير كان في محله. كانت تعرف ما تنتظره، ولكن ذلك لم يمنع خيبة أمل، ولهذا السبب شعرت بضيق شديد عندما أدركت أنها خيبة الأمل التي توقعت أن تشعر بها بالتمام. فلو كان لهذه الآلة أن تُسمى تشيلو، فعندئذ لا يمكن الاعتراض على من يسمي آلة البانجو جيتارًا.

***

وضعت الآلة في ركن من الغرفة، دون أن تعزف عليها، وذلك لأنه إن كان هناك شيء بعينه لا يمكن أن تتوهم بشأنه فهو الصوت. وهي تعرف كبرياء صناع التشيلو، ولهم كل الحق في ذلك، الذين كانوا مولعين بالعزف على ما صنعوه لأجل عملائهم. شيء من "بوكّيريني" وقليل من "باخ". لكي يظهروا عذوبة الصوت، ولرغبتهم في إثبات أنهم أبرع من أن يكونوا مجرد صانعي أعمال من خشب. كأنهم يقولون: "لقد قطعنا الألواح وتركناها تجف. وكنا نفحصها كل يوم، ولسنوات، وكنا نتحدث إليها بلا خجل مثل البستاني الذي يناجي الورود. وجمّعنا هذه الآلة ونحن نتوخى أقصى درجات الدقة. وهذا لأننا نؤمن بالجمال الذي تنثره. استمع". ومن ثم، وبيدٍ اعتادت ما تقوم به وبكل سلاسة، يعزفون، ثم يتجاهلون بعدها كل إطراء قائلين: "كفاكم، فأنتم تبالغون، ما أنا إلا نجار بسيط"، مفضّلين هذا الوصف الآن على صانع التشيلو، وهذا لأن النجارين غالبًا ما كانوا، بينما يقفون على هامش تاريخ الأدب، حاضرين عند مهد معجزة؛ مثلما كان الحال مع "يوسف النجار" و"جيبيتو"صانع "بونوكيو". بعدها، يتأهبون للعودة إلى منازلهم وهم منتشون فخرًا، بحماسة تبهج زوجاتهم. ولكن

صانع التشيلو لم يفكر ولو مرة في العزف على هذه الأوتار على سبيل الاستعراض. حتى أن لك أن تتساءل عما إذا كان قد تجرأ على تجربة آلته في الورشة، حرصًا على الاحتفاظ بفائدة الشك.

ابحث في أي مرجع عن نظرية الموسيقى وسوف تجد أن آلة التشيلو هي الأقرب إلى محاكاة صوت الإنسان أكثر من أي آلة أخرى. ولا يتطلب الأمر أذنًا متخصصة لإدراك أن هذه العبارة تتملق صوت الإنسان. ما أكثر الأصوات البشرية القبيحة، لكن الحقيقة إذا كان هناك تشيلو واحد في أي مكان في العالم يمكن أن يقترب من النعيق البشري فيسكون هذا التشيلو. ولكن السؤال هو؛ من سيريد أن يستمع إليه ؟

***

وقفت آلة التشيلو لأسابيع في ركن الغرفة، مثل قطعة أثاث ميتة، إلى أن جاء يوم فتحت فيه "مدام فيرونا" النوافذ فجأة وأخذت الآلة بين ساقيها.

تلك الرائحة الصنوبرية وكل ما تثيره من ذكريات..

قبضت على الأوتار لأول مرة، وكأنها تنحر أحدهم بسكين. قد يفضّل من يتمتع بخيال أقل كراهية للبشر أن يقصر التشبيه على أم تقطع شرائح خبز؛ وما المانع؟ يمكن أن تكون هذه الصورة أيضًا جزءًا من الواقع. طالما أنها تقطع. عزفت لمرة ثانية، من دون أمل حتى في الخطأ، ولكن لتسمع مرة أخرى ما لم يكن موضع شك أبدًا.. ذلك الصوت القبيح، الرنين المخيب للآمال، والجرس البائس. ربما كانت تبحث عن جميل في هذا القبح؛ فكثيرًا ما تخفي الأشياء قبيحة جمالًا مبهرًا؛ في محاولة منها لأن تلقي اللوم على يدها لا الآلة. وربما بادر من يمتلك نزعة ساخرة في موقف كهذا بأن يخبرنا بما يجب فعله بهذا التشيلو.. كان ذلك واضحًا. من شأن توصيفنا لـ"مدام فيرونا" أن يكون قاصرًا ناقصًا إذا استنتجتَ من فورك أنها من النوع الذي لا يثمّن السخرية. لم تكن تنفر أبدًا من مشاعر السخرية وكثيرًا ما استخدمتها في الماضي ومن دون هوادة. ولهذا السبب أدركت أن السخرية شكل من أشكال الكسل، منزل مفتوح يرحب بغير المستنير، وعاطفة كان من الممكن أن تكون في غير محلها تمامًا في هذا الموقف.

وعزفت. كان العزف نشازًا، لكنها عزفت. مقطوعات "فوريه". تلك المقطوعات التي عزفتها مع حبيبها في المعهد، ولكنها لا تشعر الآن بأي حرج أو خجل. احتضنت الآلة بقوة لتشعر باهتزاز الأوتار. وأغمضت عينيها، لا للاستمتاع بعزفها، ولكن لسماع أنغام البيانو الذي كان يعزف عليه "مسيو بوتر" يوم أن عزفا معًا. هكذا ستفعل منذ ذلك المساء، وكل مساء بعده. تجلس عند النافذة وساقاها تحتضنان التشيلو، وتعزف. في طاقم غير موجود، وفي دويتو قد غاب. تناجي اللا وجود، وربما كان هذا هو أدق توصيف لصلاة كانت تؤديها في خشوع عميق.

الفصل السابع عشر

قليلة هي المناسبات التي يمكن فيها استخدام تعبير من قبيل "يوم مميت" في سياق أدبي بديع بليغ. وفي مناسبة مثل هذه، ينتهز أي أديب الفرصة ليستطرد ويسترسل ويبالغ في جذب الانتباه إلى فحوى تعبيره. صحيح أن الأيام المميتة قد تبدأ بتقارير إذاعية عن توقعات تساقط ثلوج كثيف؛ وعليك أن تسأل في هذا الشأن أي مخرج سينمائي. هنا يمكننا بسهولة أن نصبغ ذلك اليوم من فبراير بهذا الوصف؛ فقد اتخذ ثلة من موظفي المجلس البلدي الاحتياطات اللازمة بإغلاق طريق التل الوعر، ومن ثم أخذوا أنفاسًا مرتاحة من أواخر أطراف سجائرهم، قبل أن يلوذوا بتلك المساحة في قلب الشاحنة الحكومية الصغيرة، ويتشاركوا وجبات الإفطار التي أعدتها لهم زوجاتهم، مع أكواب الشاي والقهوة الساخنة ذلك الصباح.

نهضت "مدام فيرونا" بدون خطط مسبقة في ذهنها واستقبلها كلبها يهز ذيله. أفطرت إلى جوار الراديو، حيث سمعت ما توقعته، وهو أنه سيكون هناك تساقط كثيف للثلوج بما يجعل الدروب غير سالكة. هذه هي الطبيعة في الغالب أواخر فبراير؛ بتشجيع من نهار يطول يومًا بعد يوم، وشدو حَذِر من طيور فوق أراضيها،

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وتبرعم الأشجار وخروج المخلوقات التي دفنت نفسها طيلة الشتاء في استعداد لالتئام شملها مع الشمس. وعندئذ، يضرب الشتاء ضربته الأخيرة، وكأنه يطهّر الدنيا من بعض الحمقى. والضفادع، التي تملكتها شهوة التزاوج إلى حد الجحيم، فبدأت مسيراتها الليلية الشبقة من دون احتراس، ليقابلها الصقيع فيرسل بها إلى خالقها، من دون حاجة إلى إطارات سيارات تسحقها. آخر هجوم شتوي مرير، وهو كحكم إعدام على كل من استبق بهجة الحياة مبكرًا، وقرار بأن الوجود محجوز فقط لأولئك الذين "يأتون متأخرين". أما البشرية فقدّمت قرابينها إلى هجمة الشتاء الأخيرة في هيئة حفنة من أصحاب المعاشات الذين عضهم البرد وأزكم أنوفهم.

بعد الاستماع إلى نشرة الطقس، اغتسلت "مدام فيرونا"، لكن ليس مثل شخص يتوقع الذهاب إلى أي مكان. أوقدت المدفأة بعناية متحمس. لاحظت بالطبع أن كومة الحطب تتقلص إلى أدنى حد ينذر بالخطر، وأسرعت وهي تحمل آخر عشر قطع في سلة. ولكنها لم تحسم قرارها في سكينة إلا وهي تلقي بآخر قطعة حطب في النار. ارتدت معطفها، مما أربك الكلب، لكنه تشجع وترقب على أي حال، سعيدًا لأنه على وشك أن يقطع روتينه اليومي ويخرج للتمشية.

دائمًا ما تصطحب كلابها معها للتنزه، كلها عداه. لأنه ظهر في حياتها بعد أن هجر مزرعته بدافع من الشهوة، بحثًا عن وليفة، لكنها على ما يبدو أفقدته عقله وضيّعته عن طريق العودة إلى حيث كان يعيش. والظاهر أنه اغتنم الفرصة ليعثر على سيد أفضل رفقةً. عرفت من شهيته للطعام أنه بقي ضالًا لعدة أيام، ومن طول نومه الذي استسلم له أخيرًا ولعدة أيام أيضًا، لا يقطعه إلا تقلب جسده وهمهمة النعاس. وعندما استيقظ واستفاق، وضع نفسه على الفور في خدمة مضيفته، مؤكدًا على ذلك بالنباح على سعاة البريد والحمام الذي يتجرأ على النزول إلى الشرفة. لم يبحث عنه أحد؛ ولم يأتِ أحد من مأوى الحيوانات يسألها عنه، ولم تكن له أي صورة بين الملصقات التي تنتشر في الشوارع أحيانًا، يعلّقها أطفال أحزنهم ضياع حيوانهم الأليف، وليس هناك من صور إلا لكلاب صغيرة ذات فراء أشبه بصوف أجعد.

لم تمانع "مدام فيرونا" بقاءه، طالما أدرك أن قبره لن يقع مستقبلًا في ركن من

حديقة هذا المنزل. كان حلًا مؤقتًا، بالنظر إلى صغر سنه. ولم يكن بحاجة لأن يوهم نفسه بترقب أي خروج في نزهة مع "مدام فيرونا". أمامه حديقة رحبة بما يكفي لأن يتمطع ويقضي حاجته. واستسلم الكلب لذلك الروتين الذي استمر فترة طويلة، ومن هنا كانت دهشته من تصرف "مدام فيرونا"، بعد أن ألقت بآخر قطعة خشب ثم ارتدت معطفها وأومأت له تجاه الباب. اعترته بهجة كبيرة وهو يحصي احتمالات أن يتمكن من إفراغ مثانته على الأعمدة وصناديق البريد وعجلات السيارات، حتى أنه أخذ يداعب ساقي سيدته الحبيبة في فرح، حتى أدرك أنها أكبر سنًا من أن تلقي بالًا لحركات الكلاب هذه، فكبح جماح أفكاره.

***

سارا.. ببطء، ولكن دون توقف. من الباب إلى طريق الغابة. الوعر. ولو كان أي أحد مكانها في تلك اللحظات لالتفت ليلقي نظرة أخيرة على المنزل. مهد الحب ومرسى الحداد. إلا "مدام فيرونا"، التي خطت نحو أسفل المنحدر. وبعد عشر خطوات استدارت تنادي الكلب الذي بقي واقفًا على قمة التل كما لو أنه أدرك أنه لن يعود مرة أخرى. لكنها نادته، فتبعها، بعد نباح ربما يكون آخر نباحه.

نعرف أنهما عندما وصلا إلى الوادي ارتاحا على مصطبة هناك. ونعلم أن السماء عندئذ أثلجت. ونعلم أن "مدام فيرونا" أقنعت نفسها أخيرًا بالسير لمسافة قصيرة على سبيل طلب الدفء. وأن الكلب تبعها مجددًا. واستقر بها المقام تحت الشجرة في ساحة القرية، حيث ملعب الكرة الحديدية وحيث عقود من المناقشات والجدل حول ملليمترات تحسم الفوز بمباراة. وحيث يتدفق النهر حاملًا على سطحه هراء السكارى وغناءهم، وحيث رائحة السمك المقلي التي تجذب القطط الضالة. جلست على إحدى الصخور وتخيلت كم كانت لتستمتع بتدخين سيجارة في تلك اللحظة، رغم أنها لم تدخن أبدًا من قبل. وشعرت بالأسى لأنها تركت علبة سجائر تعود لزوجها هناك في المنزل.

رقد الكلب عند قدميها، تحسبًا لأن تطلب مساعدته، أو أملًا في أن يدفئ جسده قدمي سيدته الحبيبة التي زاد شعورها بالبرد، أو بالخوف. لم يلقِ بالًا لأوامر "مدام

فيرونا" التي تصيح فيه بها بين حين وآخر: "هيا، اذهب.. ابتعد يا صغيرا هيا ابحث عن مأوى!". ظل راقدًا في مكانه، أشد إخلاصًا وصدقًا في وجه الموت منها، مهما كانت شجاعتها. ومن هي حتى تركله كي يبتعد عنها؟ ربما تتوقف سيارة وتعرض توصيلهما إلى مقصدهما. في تلك الحالة، ستبقى "مدام فيرونا" جالسة، ما من شك في ذلك، ولكنها ستعرض على صاحب السيارة اصطحاب الكلب. كان ذلك هو الاحتمال الوحيد الذي تمنته وتوقعته. فليس من بعد ذلك سوى العدم، اللا شيء، والذي تخيله من قبل كل إنسان منا، وكأنه عاشه من قبل. إنها آخر لحظاتها، ولكنها عادت بتفكيرها ببساطة مرة أخرى إلى حبيبها. ما هي إلا برهة ويحتضنها ذاك العدم، وعندئذ ستكون أحضان ذراعيه هو. هكذا وجدوا ابتسامتها في الصباح، متجمدة على وجه صار في دنيا الخيال. وجه من سوف تحيّي القائم على بوابة تلك الدنيا قبل أن تتوجه إلى مكتب الاستقبال لتجيب عن أهم سؤال تترقبه.. ستقول إنها عاشت حياةً أسعدها فيها الحظ لدرجة أنها كانت محبوبة الكلاب.. طوال حياتها.

Telegram:@mbooks90